نظرية الانفعال في رسالة ديفيد هيوم
الطبيعة البشرية

أ.م.د. زياد كمال مصطفى(*)

كلمات مفتاحية: التجربة، الانفعال، الطبيعة البشرية، الأخلاق، التعاطف.

ملخص البحث

اننا غير مُدّربين على طبيعة المشاعر البشرية، ونتأثر بالتمييز اللفظي أكثر من تلك الاختلافات الكامنة الحقيقية. هكذا يبدأ هيوم تحليله للطبيعة البشرية، والأمر لديه لا يتعلق باستنتاج منطقي أو رياضي للانفعالات، بل في محاولة تفكيك فيزيائي للانفعال أو»الحركة الانفعالية». ذلك هو السعي الهيومي في إرساء الأسس لعلم تجريبي عن الطبيعة الانسانية، والذي جاء لتوكيد أهمية ايجاد فسحة من التناغم بين ما هو في صميم الانفعال البشري الذاتي، وفق اعتبار السلوك الأخلاقي ذا مبدأ انساني اجتماعي يتأسس في معطياته على المبدأ الجمعي الكامن في عملية التعاطف. من هنا كانت نظرية «الانفعالات» في فلسفة هيوم كفيلة بالوقوف على الجوانب السيكولوجية والاجتماعية والنقدية في صلب أرض بُنيت على التشككية، لكنها أبت إلا أن تعيد بناء معطياتها من جديد على أسس توفيقية من التواصل الانثروبولوجي التجريبي الكامن في رسالته «الطبيعة البشرية»، من خلال ميلها للفضيلة والحب، ونبذها للشر والكره. إنها فلسفة الايثار أو المشاركة الوجدانية التي مهدت لتتمة عنوانها»آواصر الحاسة الخلقية».

(*) جامعة الموصل- كلية الاداب

تقديم/ العواطف وبناء هيكلية الرسالة:

في مستهل كتابه(بحث في الفهم البشري[١] نوّه ديفيد هيوم إلى أن معظم المبادئ والتعليلات الواردة – في كتابه هذا– سبق له أن نشره في عمل من ثلاثة مجلدات بعنوان(رسالة في الطبيعة البشرية ١٧٤٠)[٢]، وإنه عمل على إعادة صياغته[٣]» وصحح على ما يأمل بعض ما جاء فيه ضمن الرسالة من بعض الاهمال في التعليل والكثير منه في التعبير»[٤].

وفي ذات السياق عُرفَ عن الفيلسوف،

ضمن تصديره لكتابه(أبحاث أخلاقية سياسية وأدبية طبعة ١٧٧٧)، أي المنشورة بعد وفاته، إن معظم المبادئ والعمليات الفكرية التي تتضمنها هذه(الأبحاث)، نُشرت في عمل من ثلاثة مجلدات بنفس العنوان المذكور، أي»رسالة في الطبيعة البشرية»، وانه لما لم يجده ناجحاً، فقد أدرك خطأه بأنه نشره في وقت مبكر جداً[٥]، ليراجع الكل مجدداً في ما أطلق عليه هنا باسم «الأبحاث»[٦].

فلكي يصحح هيوم من نتيجة استعجاله لنشره كتابه»الرسالة»، أعاد أجزاءها الثلاثة[٧]، بحيث أراد أن يخرج كل جزء منها في كتاب مستقل، بعد أن يراجعه ويجوّده، وبدأ بالجزء الأول الخاص بالادراك العقلي[٨]. هذا فيما يتعلق بالبحث في الفهم أو»الادراك»، أي الجزء الأول من»الرسالة»، وهو ما تضّمنه كتاب(في الفهم البشري)، أما الجزء الثالث»أي الأخلاق» فقد خصص له هيوم كتاباً منفرداً جاء بعنوان(بحث في مبادئ الأخلاق An Enquiry Concerning The Principles of morals ١٧٥١)[٩]، ليبقى الجزء الثاني»الخاص بالعواطف Passions[١٠] والانفعالات Emotion" هو الجزء الوحيد الذي لم يفرد له هيوم كتاباً خاصاً – مع أنه كان يعتزم ذلك – مكتفياً بما جاء من تفاصيل ضمن المجلد الأم"أي الرسالة". مع ملاحظة أن هيوم لم يسلسل تلك الأجزاء الثلاثة في الرسالة على وفق تسلسلاتها الزمانية لتأليفاته لها، إذ أشار(نورمان سميث)[١١] إلى أن»القسمين الثاني والثالث من الرسالة يسبقان، في تاريخ تأليفهما، عمله في النظريات التي تناولها في القسم الأول»[١٢].

ما سماه بـ» إعادة بناء الرسالة في الطبيعة»، محاولاً في ذلك اثبات فكرتين لاعادة فهم رسالة هيوم:(الأولى) ضرورة إعادة النظر في الدور الذي يقوم به العقل في نظرية القيمة والأخلاق عند الفيلسوف.(والثانية) إعادة ترتيب مكونات الرسالة، لأن قراءته الجديدة للرسالة تقضي بعدم النظر إلى الأجزاء الخاصة بنظريات الأخلاقية على أنها مجرد تطبيق لنظريته في المعرفة أو الفهم وحسب[١٣].

لكن أخلاق هيوم، الواردة في الرسالة، مشروطة إلى حد كبير بمواقف تبناها من قبل[١٤]، وتحتوي على خطوط مختلفة من التفكير. وقد طور»بنتام» و»جيمس مل» و»ستيوارت مل» العنصر النفعي فيما بعد، في حين أن الاصرار على الوجدان وجد حياة جديدة في المذهب التجريبي الحديث في نظرات الأخلاق الانفعالية[١٥]. وتبرير ذلك يأتي برأي لهيوم» إن أولئك الذين يجدون أخلاقاً في العاطفة أكثر مما هي في التفكير، يميلون لأن يفهموا الأخلاق طبقاً للملاحظة الأولى ويؤيدون، في كل المسائل المتعلقة بالسلوك والأخلاق، إن الفرق بين الناس هو في الحقيقة أكبر مما يبدو للوهلة الأولى»[١٦]. في حين أنه بالامكان، فيما يتعلق باصلاح أصل الأخلاق»أن نُظهر بسهولة إلى أي مدى تدخل العاطفة أو العقل في جميع قرارات الطبيعة البشرية»[١٧].

والسؤال الذي يرودنا هو: إذ ما كان هناك ثمة سياق متصل ما بين مبادئ الفهم والعاطفة عند هيوم؟ لأن ذلك بالتحديد هو ما ستتضح من خلاله نظرية الانفعال، خصوصاً أن الفيلسوف يرى»ان الغاية الوحيدة للمنطق هي أن يشرح

مبادئ ملكتنا الفكريــة وعملياتها وكذلك طبيعة أفكارنــا: الأخــلاق والنقــد المتعلــق بأذواقنــا وعواطفنا»[١٨]. والحقيقة اننا سـنجد في رسالة هيوم نوعين[١٩] من التعريف والتحليل،(الأول) هــو التعريف أو التحليــل الذي جاء على المثال المأخــوذ مــن العلــوم الطبيعيــة، أي»النظــرة التأليفيــة» أو التركيبية.(والثانــي) هو التعريف أو التحليــل الــذي يتأســس على وقائــع الخبرة الخُلقيــة[٢٠]. فضلاً عن أن هذيــن التعريفين لن يخلو عند هيوم من المبادئ السيكولوجية.

أما عن حدود بحثنا ضمن ميدان الرســالة، فســيكون مرتكــزاً علــى مجــال الانفعــالات والعواطــف التــي جاءت وســطاً لا زمانياً فيها بل وســطاً منهجياً ســياقياً مكمــلاً لنظرة هيوم الابســتمولوجية-الانثروبولوجية فــي الطبيعــة البشــرية، وممهــداً لخصائصهــا في التأســيس للمشاركة الوجدانية.

المحور الأول/ في انثروبولوجيا الرسالة

يقــول هيوم: «كنتُ رجــلاً ذا ميول لطيفة، أتحكم بطبعــي، كذلك صاحب مزاج اجتماعي، مــرح، مُنفتح، قــادر علــى اقامــة الصداقات، لكــن قابل قليلاً للعداوة، ومعتــدل كثيراً في كل عواطفي. بل حتى حبي للشــهرة الأدبية، وهي عاطفتي الطاغية، لم تكّدر طبعي، رغم خيباتي الكثيــرة، كمــا أن صُحبتي لم تكــن غير مقبولة للشباب وغير المهتمين وكذلك للمجدين ورجال الأدب»[٢١]. وهــذا النــص إنما يــدل على مدى توافــر النزعــة الاجتماعيــة والمتواضعــة في شــخصية هيوم، فيا ترى هل أثرت هذه النزعة في توجهاته بحيث يسعى للتأليف في مجال علم الانسان ؟.

ســؤال يوجهنا إلى إنســانوية فلسفة هيوم» يا أيها الانســان كُن فيلســوفاً، ولكن عبر كامل فلسفتك تلك كُن إنســاناً». ولما لم يكن بالامكان دراســة الطبيعة علمياً إلا في ظل تأثيراتها على الذهن، وعلم الذهــن الوحيد والحقيقي يجب أن تكــون الطبيعة موضوعــه[٢٢]، وكانت الطبيعة البشرية هي علم الانسان الوحيد(والذي يعد هو الأساس الصلب الوحيد للعلوم الأخرى)[٢٣]، لذا كان على هيوم أن يتســاءل»كيف يصبح الفكر طبيعة» ؟.

فليس هناك من مسألة ذات أهمية، لا يشمل البــت بها»علم الانســان»[٢٤]، وليس هناك من مســألة يمكن البت بها بأي نوع من اليقين، قبل أن نصبح على معرفة بذلــك العلم[٢٥]. فما أراد فعلــه هيوم يتلخص في كونه تجربة مدّ المفاهيم العامة»للفلســفة الطبيعية» إلى»علم الانسان»، إذ يجــب أن نجمــع تجاربنا في هــذا العلم»من المشــاهدة الحــذرة للحيــاة الانســانية وأخذهــا كمــا تظهر في الســياق العام للعالــم، من خلال ســلوك الناس وهم مع أصحابهــم، في أعمالهم ومسراتهم. وحيث يتم جمع ومقارنة تجارب من هذا النوع بصــورة حكيمة، يمكننا أن نأمل بأن نؤسس عليها علماً لن يكون أدنى من يقينيته، بل سيكون أكثر نفعاً من أي علم آخر خاص بالفهم البشري»[٢٦].

فالأفعــال البشــرية مطّــردة مثلهــا في ذلك مثل الموضوعات الخارجية، أي مثل الظواهر الطبيعيــة، وعدم امكان اثبات أن بعض الأفعال البشــرية مطّردة ليس دليــلاً على عدم الحتمية، وإنمــا هو دليل على معرفتنــا الناقصة فقط لهذا الاطــراد، فطالمــا أن الأفعــال ترتبــط ارتباطاً وثيقاً بموقف الفاعل ومزاجه، فإننا لا نســتطيع

إنـكار اطرادهـا وانتظامهـا[٢٧]. فنحن»نختار كاتبنـا المفضل كمـا نختار صديقنـا المفضل، بنـاءً على تطابـق المـزاج والميـول، فالفرح والهـوى، العاطفـة أو التفكيـر، أي منها تكون له الغلبة على طبعنـا، يمنحنا تعاطفاً خاصاً مع الكاتب الذي يشبهنا»[٢٨]. وإذا كان لديّ تعاطف سارٍ(pleasing sympathy) في توقع الكثير مـن الفـرح، فإنـه لا يمكننـي أبـداً التفكير في مصدرها، بدون تلك المشـاعر التي هي الأكثر قبولاً أو استحساناً بالنسبة لي[٢٩].

وهكـذا فـإن التفاعـل الاجتماعـي للفرد – بحسـب هيوم- إنما يؤَسـس على علـم الطبيعة الإنسـانية[٣٠]. كذلـك فـإن الأسـاس الصلـب الوحيـد الذي يمكـن أن نوفره»لعلم الانسـان» بالذات يجب أن يقوم على التجربة والمشاهدة» وليـس بالأمر المدهش أن نرى تطبيقاً للفلسـفة التجريبيـة علـى الموضوعات(الأخلاقيـة) قد أتى بعد تطبيقها على الموضوعات(الطبيعية)، بفـارق يزيـد على قـرن كامل»، مـا يعني أن غـرض هيوم في كتابه»الرسـالة»، هو تطبيق للمنهـج التجريبي الذي طُبـق بنجاح في ميدان العلـم الطبيعـي على دراسـة الانسـان كذلك، إذ لا بـد من البـدء بملاحظة لعمليات الانسـان السـيكولوجية، وسـلوكه الأخلاقي، للتيقن من مبادئها وعللها. لذا كان علينا أن نبدأ بالمعطيات التجريبية بحد ذاتها، ولا بد من أن يكون منهجنا في ذلك استقرائياً لا استنباطياً[٣١].

ومن ثـم فـإن «المجتمـع البشـري» يقوم علـى مبادئ مشـابهة للمبادئ التـي تقوم عليها الموضوعـات الخارجيـة[٣٢]. ونظـراً لأن للأخلاق تأثيـراً في الأفعـال والعواطف، يتبع ذلك، برأي هيوم»أنها لا يمكن أن تكون مستمدة من العقل وأنها بسـبب العقل وحده... فالأخلاق تستثير العواطف وتؤدي أو تمنع حدوث أفعال، والعقـل بحد ذاتـه عاجز كلياً في هـذا المجال. لـذا فـإن القواعـد الأخلاقية ليسـت اسـتنتاجاً لعقلنا»[٣٣]. وعلى حد تعبير دولوز في تفسـيره لنظرة هيوم»ليسـت طبيعتنا هي الأخلاقية، بل أخلاقنا هي التي فـي طبيعتنا»[٣٤]، إذ ما دامت الموضوعـات الخارجية تخضع للضرورة ولا يمكن لها أن تحيد عن الخط الدقيق الذي تتحرك فيه. لذا ينبغي، برأي هيوم، أن نتوجه إلى نفس هذه القواعد التي نستدل بمقتضاها عندما نكون بصدد الموضوعـات الخارجية في الحكم على أفعال الناس.

يقـول هيوم:«ان المشـاعر Sentiments التـي تختبر فيـه كل حين اللـوم والثناء، والتي لها مزايا تتجاوز سيطرة الإرادة Will... يتعين علينـا، إن لم يكـن كعلماء أخلاقيين، كفلاسـفة متأملين على الأقل، أن نعطيها بعض النظريات والتفسيرات المُرضية"[٣٥]. فكان من بين ذلك، السـؤال المتعلـق بالأنانيـة الكليـة أو الجزئية للانسـان، إذ يجـب أن لا يكون ماديـاً، كما هو التصور السائد للأخلاق والسلوك، بل هو نتيجة عظيمة في التأمل للطبيعة البشرية[٣٦].

وهـذا ما يفسـر سـر انتقـال هيوم»بمفهوم الاعتقـاد» مـن الابسـتمولوجية القديمة، حتى الحديثة(ديـكارت وسـبينوزا)، إلـى مشـروع انثروبولوجـي خـاص بفلسـفته فـي الانسـان وطبيعتـه، بديـلاً للدراسـات الميتافيزيقية عن الانسـان[٣٧]. فهيـوم يطـرح على نفسـه مهمة انتاج»علم للانسـان» ومشروعه في ذلك يتعلق باستبدال(سيكولوجيا للفكر بسيكولوجيا تأثرات الفكـر)[٣٨] «فالاولى» لا تتمكن من أن تجد في

موضوعها الاستدامة والشمول الضروريين «والثانية» هي التي يمكن أن تشّكل العلم الحقيقي للانسان. وبهذا المعنى، يكون هيوم أخلاقياً، وعالم اجتماع، قبل أن يكون عالم نفس، وكتابه « رسالة في الطبيعة البشرية» سوف يبين أن الشكلين اللذين يتأثر بهما الفكر، هما قبل كل شيء(الانفعالي والاجتماعي)[٣٩]. وهذان الشكلان يتضمن أحدهما الآخر مؤّمنين وحدة موضوع أصيل[٤٠].

فبحسب هيوم إن « الكراهية، الاستياء، التقدير، الحب، الشجاعة، الفرح والاكتئاب، كل هذه العواطف أشعر بها من خلال التواصل أكثر مما أشعر بها من مزاجي وميلي الطبيعي»[٤١]، وفكرته البنّاءة – على حد تعبير ديوي- هي»أن الطبيعة البشرية تمّدنا بصور أو رسم الموضوعات الانسانية والاجتماعية». وهكذا نصل الى نتيجة مفادها أن نمطية رسالة هيوم في الطبيعة البشرية تنحو نحو»علم النفس الاجتماعي»[٤٢]، نظراً لتداخل هذه الرسالة بسيكولوجيا العواطف والانفعالات تارة، والسلوك الانثروبولوجي تارة أخرى.

صحيح ان التأثر الانفعالي والاجتماعي هو فقط جزء من الطبيعة البشرية – الى جانب الفهم وتداعي الأفكار – لكن المعنى الحقيقي للفهم، بحسب هيوم، هو بالضبط جعل(الإنفعال أنيساً)، وجعل(مصلحة اجتماعية)[٤٣]، وفي ذلك يأتي قوله»إن كل الأخلاق اجتماعية، ليس لأننا يجب أن ندخل في اعتبارنا نتائج أفعالنا على مصالح الآخرين ولكن هذه هي الحقيقة. ويدخل الآخرون في اعتبارهم ما نفعل، ويستجيبون لأفعالنا طبقاً لذلك... فسلوكنا يقوم على الناحية الاجتماعية سواء أدركنا هذه الحقيقة أم لم ندركها»[٤٤]. مع ملاحظة أن هيوم اهتم بتحليل « الجانب العاطفي» من الطبيعة البشرية، منظوراً إليه على أنه مصدر للفعل، ولم يهتم بالحديث من الناحية الأخلاقية عن العواطف المفرطة[٤٥].

يقول هيوم: « إن فرداً يمتلك العقل، ولكنه غير ملم بالطبيعة البشرية، يحرر بنفسه أفضل قواعد العدل أو الملكية التي من شأنها تعزيز المصلحة العامة، واقامة السلام والطمأنينة بين الناس: سيكون فكره الأكثر وضوحاً، لتحديد أكبر خصال الفضيلة الأكثر شمولاً، ومنح كل واحد قوة فعل الخير، بما يتوافق مع ميوله!»[٤٦]. في حين أن السلوك الانساني مشروط بالطبيعة الانسانية، وهي ذات طبيعة انفعالية في الأساس لأن الانفعال وحده هو الذي يعطيها وجودها وكينونتها، فكل سلوك انساني صادر عن(الانفعالات) هو دافع للفعل وسببٌ لها وهو ما نراه في الطبيعة لكل سبب سبب له[٤٧].

فما يقصد اليه هيوم إذن هو التأكيد على أننا لا نستطيع من الناحية المنطقية أن نستمد جُملاً تقرر« ما ينبغي على الانسان أن يفعله» من جُمل تقرر« ما هو كائن». ذلك أن مفتاح وصف وشرح الأحكام الأخلاقية توجد في ما يصنعه الناس بالفعل في الوقائع الأساسية للطبيعة البشرية لا في محاولات متعالية للاهوت ولا في مقولات قبلية سابقة على التجربة[٤٨]. وإن كان هيوم قد كتب رسالته « الطبيعة البشرية» قبل ظهور الانثروبولوجيا والعلوم الحليفة لها. إلا أن ثقافة عصره ساهمت في تشكيل المظاهر المادية لكل طبيعة انسانية. فكان انجازها العظيم متمثلاً في أن يكون هناك

تأكيد على الأعمال المشتركة للتكوين الانساني المشترك وسط مختلف الظروف والمؤسسات الاجتماعية، وهنا تحديداً يقرر ديوي إن هيوم في « المواد الاجتماعية» على أرض آمنة[٤٩].

المحور الثاني/ في تجريبية الانفعال

يعّنون هيوم القسم الثاني من كتاب(الرسالة)، والخاص بالعواطف والانفعالات،»بمحاولة لتقديم الطريقة التجريبية للتفكير في المواضيع الأخلاقية»[٥٠]. إلا أن هذا العنوان في حقيقته يشمل كلا القسمين المتبقيين من الكتاب، أي الثاني والثالث، وليس الثاني وحسب. كذلك يقول هو في كتابه(مبادئ الأخلاق): « لقد شغى الناس الآن من شغفهم بالفرضيات والأنظمة في الفلسفة الطبيعية، ولن يستمعوا لأي حجج سوى تلك المشتقة من التجربة. يجب أن يبدأوا على الدوام باصلاح جميع الاكتشافات الأخلاقية، ويرفضوا كل نظام أخلاقي، مهما كان راقياً أو عبقرياً، لا يقوم على الحقائق والملاحظة((Fact and observation"[٥١].

ليكون السؤال: عما إذا كان هنالك بالفعل ثمة أصول أو أسس تجريبية لدراسة هيوم نظريتي العواطف والانفعالات ؟.

يرى ديوي إن الطبيعة البشرية عند هيوم تقدم لنا « مفتاح علوم هذا العالم الفيزيقي حيث انها جميعاً تقال وتفعل ولذلك فهي أيضاً ثمرة أعمال العقل البشري... فالطبيعة البشرية هي على الأقل عامل مهم في الشكل الذي يتخذه حتى العلم الطبيعي»[٥٢].

وعلى حد قول هيوم، فإنه لدى حكمنا على أفعال الناس» يجب أن ننطلق من القواعد ذاتها التي ننطلق منها حين نفكر فيما يتعلق بالأشياء الخارجية»[٥٣]. لا بل إن أفضل شاهد يدل على امكانية اجراء دراسات وبحوث علمية حول مسائل تتعارض مع»المبادئ الاكسيولوجية» مثل(الكذب والخيانة والجريمة والنوايا السيئة والأنانية وغيرها)، هو ما يقوم به المفكرون من بحث وتحليل مسهب بخصوص وقوع الجريمة من حيث أسبابها وظروفها ومقتضياتها والأمور التي تحول دون وقوعها[٥٤].

ومع أن هيوم يرى« ان حالات الاضطرابات، والفتن، والانقسامات، والذعر،وجميع العواطف التي يشترك فيها الجمهور، قد نتعلم منها تأثير المجتمع، في اثارة ودعم أي عاطفة»[٥٥]. الا أن تجريبية هيوم في دراسة أنماط السلوك البشرية ليست هي من نوع التجريبية الصارمة[٥٦]، بل هي(توفيقية) إلى حد ما، لأن فكرة التجريبية الخاصة لدى هيوم، لا ينفي القول بالعقلانية[٥٧]، ذلك أن منهج هيوم ذاته ينطوي على مقدمات عقلية واضحة[٥٨]، فالمنهج التجريبي للاستدلال في العلوم الطبيعية الذي حاول هيوم ادخاله في الفلسفة هو نفسه عقلاني البداية والأصل، فهل يدل ذلك على أن هيوم كان يقتدي بمنهج ظاهره التجريبية وباطنه العقلانية، أم أن هيوم كما يقول الخشت: كان عقلانياً وإن لم يكن على وعي مباشر بذلك[٥٩].

هنا نستذكر رأي دولوز في وصفه المعنى الحقيقي « للفهم» عند هيوم، بأنه بالضبط جعل(إنفعال أنيساً)[٦٠]. نعم انها توفيقية ذات مستهل تجريبي، وهو ما يفسر، كيف أن هيوم عندما بحث في الدين مثلاً، لم يركز سوى على تاريخه الطبيعي، فهو – ان صح التعبير-

أنزلــه من برجــه العالي والمقـدس ليبحث فيه بمــا هو ظاهرة انســانية كغيرها مــن الظواهر الأخرى[٦١].

فمن المحال – بحســب هيوم- أن نشّكل أي فكــرة عن قدرات العقل وصفاتــه « إلا ما كان منها مســتمداً من التجــارب الدقيقــة والجارية بعنايــة... وأن أيــة فرضيــة تدّعــي اكتشــاف الصفــات الأصليــة النهائية للطبيعة البشــرية، يجب مباشــرة أن يتم رفضهــا باعتبارها وقحة وواهمة»[٦٢]. وهــذا ما يدعونا أن نتعرف على نمط تفسـير الطبيعة الانســانية عند هيوم على أســاس قانــون التداعــي بمبادئــه الثلاثة، أي« الســببية» و « التجاور» في الزمان والمكان و « التشابه».

يقــول هيوم: « مــن الواضــح أن الطبيعة تحتفــظ بقدر كبيــر من التشــابه بيــن الكائنات البشــرية جميعــاً، وأننــا نلاحظ أيــة عاطفة أو مبــدأ لدى الآخرين ليس لدينا ما يوازيه بشــكل مــا. الحالــة ذاتهــا تنطبــق على نســيج الذهن، كمــا هي الحــال مع نســيج الجســم»[٦٣]. فمثلاً موضوع(الحــب والكراهية) هو شــخص آخر نكــون واعين بصــورة وثيقة لأفــكاره، أفعاله وأحاسيســه، هذا جلي تماماً من التجربة» فحبنا وكرهنا يكونان دائماً موجهين إلى كائن خارجي محســوس ما، وعندما نتكلم عــن حب الذات لا يكون ذلك بالمعنى ذاته وليس له الاحساس ذاته الذي يحدثه أي شــيء مشــترك مع تلك العاطفة الرقيقة التي يثيرها صديق»[٦٤].

فبحســب هيــوم، نحــن نــدرك العالــم من خــلال الانطباعات(impressions)(الحســية والانفعاليــة والعاطفية)، والأفكار(ideas) هي بمثابة صور باهتة وانعكاسات لتلك الانطباعات الحسية في التفكير. ثم تقوم الذاكرة بحفظ الأفكار وفق ترتيب حدوثها، وبعدها تعمل المخيلة على إعادة ترتيب الأفكار المســتمدة من الانطباعات ودمجهــا وتوليفهــا على نحو أكثــر تعقيداً[٦٥]» فالطبيعة تقدم في الحكم((Jugement وفي الفهم علاجــاً لما هنالك من غيــر منتظم وغير مريح في التأثرات"[٦٦] وبذلك يكون عنصر(التداعي) [٦٧] العنصر الوحيد المكون للطبيعة البشرية[٦٨] إذ «لا يعــرف تداعــي الأفكار ذاتــاً عارفة، بل على العكس مجموع وسائل ممكنة لذات عملية كل أهدافهــا الحقيقية هي نســق انفعالي... هكذا يُبدي اخضاع التداعي هذا الانفعال في الطبيعة البشــرية بحد ذاتهــا، نوعاً من الغائيــة الثانوية يهيئنا لمشــكلة الغائية الابتدائية، لاتفاق الطبيعة البشرية مع الطبيعة»[٦٩]، ذلك أن معنى الغائية تمثل الاتفاق بين الغائية القصدية والطبيعة[٧٠]. وما تقدم يعطي دليلاً واضحاً على صلة نظرية العواطف التي نحن بصددها، بنظرية هيوم في المعرفة أو الفهم البشري.

لذلك يــرى هيوم إنه « مهمــا تكن الأفعال التــي نقــوم بها نزواتيــة وغير منتظمــة، وبما أن الرغبــة في ابداء حريتنا هــي الدافع الوحيد لأفعالنا، فإننا لا نستطيع أبداً أن نحرر أنفسنا من قيود الضرورة»[٧١] وإن كانت هنالك اختلافات فــي الآراء الأخلاقيــة، إلا أن هــذه الاختلافات الظاهرية تخضع أيضاً لمبادئ مطّردة منتظمة. فالسلوك الانساني مطّرد، ويظهر لنا هذا وجود قواعد انســانية ثابتة يتفق عليهــا جميع الناس، فهناك انتظــام في(الأفعال والعواطف)، وهناك اطراد في التغيرات الحاصلة لعقول الموجودات البشرية منذ الطفولة حتى الشيخوخة. كذلك فإن الوظائــف المختلفة للحياة لها تأثير في النســيج العكســي الداخلــي والخارجي، تلــك الوظائف

التي تنشأ بالضرورة من المبادئ الضرورية المطردة للطبيعة البشرية[٧٢]. « فلا شيء له تأثير أكبر سواء في زيادة أو نقصان عواطفنا لتحويل السرور إلى ألم والألم إلى سرور، من العادة والتكرار. إذ أن للعادة تأثيرين أصيلين في الذهن من حيث اضفاء السهولة على أي فعل أو فهم أي شيء ومن ثم التوجه أو الميل نحوه»[٧٣]. والشعور بالسرور والألم، يعد بمثابة المحرك الأول، أو المبدأ الفعال في الذهن البشري»وحين يتم ابعاد هذين الشعورين من فكرنا وشعورنا على السواء، نكون إلى حد كبير، غير قادرين على الشعور والفعل، الرغبة والإرادة»[٧٤].

والحقيقة إن القول بأن مبدأ الطبيعة(العادة Custom)، يتكون تدريجياً إنما هو القول في المقام الأول: إن التجربة بحد ذاتها هي مبدأ من مبادئ الطبيعة[٧٥]. أما ما يقصده هيوم(بالتجربة)، فهو الخبرة النفسية – انسانية عامة تعبر عن وضع الانسان في الكون[٧٦]. وعليه سوف تُدعى غير تجريبية «كل نظرية تعتبر، بصورة أو بأخرى، إن العلاقات تنبثق من طبيعة الأشياء»[٧٧]، وبذلك يتضح لنا ما هو معيار التجريبية عند هيوم.

فثمة اتساق قائم بين مجرى الطبيعة وبين تعاقب أفكارنا، وهذا الاتساق في نظر هيوم لازم للجنس البشري[٧٨] «فالعادة تنقلنا بسهولة وبالضبط إلى ما وراء حدود عواطفنا وكذلك عملياتنا الفكرية»[٧٩]، الأمر الذي يؤكد لنا مدى ارتباط آراء هيوم في العواطف والانفعالات بالأصول المنهجية لنظريته في الفهم والمعرفة. وكما يقول كوبلستون: « إن التأكيد على دور هيوم كفيلسوف أخلاقي هو أمر مشروع، غير أن هذا الجانب من تفكيره سيصبح مُغالياً إذا انزاح دوره كفيلسوف ابستمولوجي إلى الخلف»[٨٠]. وليس أدلُ على ذلك من رأي هيوم نفسه في المشروع الأخلاقي في كتابه(الرسالة) سيأتي متمماً لموضوعات الفهم والعواطف، والتي تشكلان لديه سلسلة كاملة من العمليات الفكرية بذاتها[٨١].

إن منهجية هيوم التوفيقية والموسوعية في تناول موضوعات الفلسفة المختلفة حدت به إلى تكوين رؤى موّحدة محايدة للعلوم الانسانية وما يتعلق منها تحديداً بالطبيعة البشرية. لذلك اتخذ له قاعدة أساسية مفادها»إن الشاك ليعمل عبثاً على التفرقة بين العلم والحياة العامة أو بين علم وآخر. فالحجج المستعملة فيها جميعاً، إذا كانت صحيحة، فهي من طبيعة متماثلة، وهي في القوة والوضوح سواء»[٨٢]. وعلى الاجمال، فإن عالم هيوم – في واقع الحال – ليس عالماً من ذرات بشرية تنشطر بالتبادل، ولكنه عالم التجربة العادية التي ترتبط فيها الموجودات البشرية ببعضها بدرجات متنوعة من علاقات متبادلة، ويأخذ هيوم ذلك بوصفه شيئاً مُسّلماً به[٨٣]. فهو القائل»ان منزلاً مريحاً وشخصية فاضلة لا يسببان الشعور بالاستحسان نفسه، حتى لو كان مصدر الاستحسان هو نفسه، وينبثق من التعاطف وفكرة الانتفاع، على أن هناك شيئاً ما غير قابل للتفسير البتة في هذا التنوع من المشاعر، إنما هو ما نمتلك من تجربة عنه فيما يخص كل عواطفنا ومشاعرنا»[٨٤].

وسنرى كيف أن فكرة التعاطف مؤلفة لدى الفيلسوف من ميكانيكا سيكولوجية، وأن عملية التواصل العاطفي هي العلة الأساس في توليد جملة الانفعالات والعواطف. وأن هيوم

عندما يتسائل عن أنواع العواطف، ومكوناتها، وعلاقتها بالانطباع والفكرة، وعملية التعاطف ذاتها، إنما يستعمل في كل ذلك المنهج التجريبي لذلك الغرض.

المحور الثالث/ انفعالات(العقل) أم(العاطفة)

يستعمل هيوم لفظ(العواطف passions) ليدل به على شتى صنوف الغرائز والدوافع النفسية(والميول والرغبات والانفعالات(emotions، إلا إنه برغم هذه السعة في معنى العواطف فهو لا يريد للفظ أن يشمل الشعور باللذة والشعور بالألم، لأنه يجعل هذين ضمن الانطباعات الحسية(أي في الجانب الادراكي لا في الجانب الوجداني)[٨٥].

والعواطف لديه نوعان،(عواطف مباشرة direct passions) وهي تلك التي تنشأ من الخير والشر، من اللذة والألم،(وعواطف غير مباشرة indirect passions) وهي التي تنشأ من نفس المبادئ ولكن بارتباط خصائص أخرى[٨٦]. فالكبرياء((Pride والتواضع(Humility) والحب والكره، كذلك الأمل والخوف، تنشأ من علاقة مزدوجة بين الانطباعات والأفكار(impressions and Ideas)[٨٧].

بهذا المعنى، يحصر هيوم كلمة»العاطفة»، كذلك»الانفعال» فيما يسمى بالانطباعات الفكرية القوية، وليست هذه الانفعالات القوية أو العواطف بمعنى محدد مشوشة وغير منظمة بالضرورة[٨٨]. لذا ينبغي»علينا أن نميز بين العاطفة الهادئة والعاطفة الضعيفة، بين العنيفة والقوية، لكن رغم هذا، من المؤكد اننا عندما نتحكم بانسان ونجعله يقوم بأي عمل، فإن الأفضل عموماً كسياسة أن نعمل على العواطف العنيفة (Violent Passions)) أكثر من الهادئة وأن نأخذه بحسب ميوله بدلاً مما يدعي لدى العامة بالعقل... هذان النوعان من العاطفة كلاهما يتابع الخير ويتجنب الشر وكلاهما يزداد أو ينقص بازدياد أو نقصان الخير أو الشر، لكن هنا يكمن الاختلاف: فالخير نفسه حين يقترب يثير عاطفة عنيفة، وحين يبتعد لا يثير إلا عاطفة هادئة"[٨٩].

وما دامت العواطف، على ما لها من استقلال، يستحيل بعضها إلى البعض الآخر إذا احتواها تيار عاطفي واحد، فإنه ليترتب على ذلك أن الخير أو الشر عندما يوّلد أحدهما انفعالاً خاصاً يقترن بعاطفة مباشرة فإن هذا الانفعال ينّمي من قوتها ويفيض في حيوتها. فالعاطفة المباشرة تدخل في تكوين العاطفة غير المباشرة، وهذه الأخيرة تنمي بدورها من قوة الأولى وتفيض في حيوتها، فالتأثير بينها متبادل وتيار العواطف متصل والعاطفتين متكاملتين[٩٠].

ولو تساءلنا مع هيوم لماذا يكون مصاب الانسان أو حزنه أقوى وأطول تأثيراً من أي سرور أو متعة، لكانت الاجابة لديه»إن الغياب الطويل يُضعف بالطبع فكرتنا وينقص العاطفة: لكن حيث تكون الفكرة قوية وحية جداً بحيث تدعم ذاتها، فإن الانزعاج الناشئ من الغياب يزيد العاطفة ويمنحها قوة وعنف جديدين»[٩١].

وما دام هيوم قد حدد كلمتي»العاطفة» وكذلك»الانفعال» بالانطباعات الفكرية القوية، فإن العواطف الحية تصحب دائماً خيالاً حياً، وهذه الحيوية أمر لازم لاثارة عواطفنا القوية

منها والهادئة على حد سواء. إذ «يمكن ملاحظة أن سحر الشعر العظيم يتألف من صور حية للعواطف السامية، الشهامة، الشجاعة... أو تلك المعاني للعطاء والمودة والحب والصداقة، التي تدفئ القلوب وتُفصح عن مشاعرنا أو أحاسيسنا المشتركة»[٩٢].

وهذا الاندماج بين ما هو»عاطفي وخيالي: إنما يدعونا إلى التساؤل فيما إذا كان أساس تلك الانفعالات البشرية هو العقل أم العاطفة ؟، أم كلاهما معاً متآزرين ؟.

إن ما بين معقولية الأفعال البشرية وغير معقوليتها في الفلسفة(فارق) ينوه إليه هيوم بقوله»لا شيء في الفلسفة وحتى في الحياة اليومية العامة، مألوف أكثر من الكلام عن الصراع بين العقل والعاطفة ومن اعطاء الأفضلية للعقل والتأكيد على أن الناس فاضلون فقط بقدر ما يمتثلون لأوامره... على هذه الطريقة من التفكير يبدو أن الجزء الأكبر من الأخلاقية، قديمها وحديثها، قد قام بالأساس، من هذه الهيمنة المفترضة للعقل على العاطفة»[٩٣]. في حين أن(الأفعال) بحد ذاتها لا يمكن وصفها في رأي هيوم بأنها معقولة أو غير معقولة، لأن(الاعتقادات) وحدها هي التي توصف بأنها كذلك. وهذه الاعتقادات لا تؤثر على سلوكنا ولا تدفعنا إلى الفعل إلا إذا كانت متصلة باشباع عاطفة أو رغبة من الرغبات[٩٤].

يقول هيوم: « إن منعطف العقل Turn of mind)) أو الخلاص((adispositition، الذي يقوى على النهوض بالانسان في العالم، وتعزيز امكاناته، يوجب له منا الاحترام((respect... لذلك، كان من الطبيعي افتراض أن الحيازة الفعلية للثروات والسلطة سيكون لها تأثير كبير على هذه المشاعر"[٩٥]. وبهذا المعنى، فإن العقل والعاطفة إنما يتضافران –تقريباً- في التحديدات والأحكام الانسانية.

فالعقل عند هيوم يقوم بدور ضروري في التقييم الأخلاقي، إذ ليس العقل مجرد خادم للعواطف، وإنما هو ضروري لهذه العواطف الخُلقية بنفس القدر الذي تكون فيه هذه العواطف ضرورية للفعل ذاته[٩٦]. لذا فإن العقل لا يمكن أن يؤثر بمفرده في السلوك، وإن الانفعالات أو الوجدانات هي المصادر الأساسية للفعل[٩٧]»فالغايات النهائية للأعمال البشرية لا يمكن أبداً، بأي حال من الأحوال، أن يحسبها العقل وحده، لأن الأعمال التي هي من شأن المشاعر البشرية لا تعتمد على الكليات الفكرية»[٩٨].

لكن، سوء الفهم الجدلي لطبيعة العلاقة ما بين العقل والعاطفة عند هيوم، أي المآخذ النقدية تجاهه، بدأ من نص مقتضب له، وهو نص لطالما احتدم الخلاف حوله، حتى ظهرت أعمال كاملة في مجلد خاص عن هيوم يحمل عنوان(هيوم فيلسوف السخرية من العقل!![٩٩]، أما النص الهيومي في الرسالة، فيقول فيه: « لا شيء يمكن أن يعرقل دافع العاطفة إلا دافع مضاد... على أننا لا نتكلم على نحو دقيق وفلسفي عندما نتكلم عن صراع بين العاطفة والعقل. فالعقل هو، ويجب أن يكون فقط، عبداً للعواطف، ولا يمكن أن يدّعي مكانة أخرى سوى أن يخدمها ويطيعها»[١٠٠]. ليكون هيوم متهماً في ذلك، ليس في الأخلاق وحسب، بل وحتى في الأمور الواقعية على الخصوص، إن عقل الانسان لديه يتبع عواطفه. وأن كل المعرفة البشرية متوكئة على العقائد الطبيعية،

ومن ثـم أن رسـالة الطبيعة البشـرية لهيوم لا تحمل فلسـفة أصالة التجربة، بـل فكر طبيعي النزعة[١٠١] ؟.

وبامكاننـا أن نناقش ذلك بدءاً من التسـاؤل الآتـي: علـى أي أسـاس أقـام هيـوم الأحكام الأخلاقية؟ على المنطق العقلي، أم على أسـاس الميول الوجدانية ؟

يشـير هيـوم إلـى أنـه بالرغـم مـن تأكيد الفلاسـفة القدامـى، في كثير مـن الأحيان على أن الفضيلـة Virtue ليسـت سـوى امتثـال للعقـل constitition to reason))، إلا أنهم اعتبروا أن الأخلاق تستمد وجودها من"الذوق والمشـاعر"، لذا كان مفكريـن محدثين -أمثال شافتسـبري- يتحدثـون عـن، جمـال الفضيلة وسـوء الرذيلـة Vice، ومـع ذلـك فقد سـعوا عمومـاً إلى تفسـير هذه الاختلافـات من خلال الاسـتدلالات الميتافيزيقية[١٠٢]. وعلى الاجمال ليـس الحكـم الخُلقي قائمـاً على منطـق العقل وحـده، بل على الـذوق والعاطفـة كذلك، وإن صراع العقل والعاطفة»يضفي نوعاً من التنوع على حياة البشـر ويجعل النـاس مختلفين ليس فقط عن بعضهم البعض وحسـب بل أيضاً عن أنفسهم في أوقات مختلفة»[١٠٣].

فالعقل عند هيوم نوع من العاطفة، ونظرية العقـل لديه تذهب من شـكية(Scepticisme) إلـى وضعيـة Positivisme، مـن شـكوكية للعقـل إلـى وضعيـة للعاطفة، تتضمـن العقل أخيراً كانعكاس للعاطفة في الفكر المكّيف[١٠٤]. والعاطفة التي تحّفز العقل برأي هيوم هي دائماً عاطفـة لغاية معينـة هي « اللـذة»، أو لنقل « السعادة». وبرأيه نحن نرغب العقل لكي نكتشف الطرق التي تتحقق بها غاياتنا ورغباتنا أي اننا نرغب الفعل لذاته، فالانسان يرغب في أن يفعل بصورة عاقلة من أجل هذا الفعل العاقل والفعل الفاضل[١٠٥] « فكل عاطفة، عادة[١٠٦]، أو تحول شخصية، كما يقال، فيه ميل لمنفعتنا أو تعصبنا يمنحنا بهجة أو انزعاجاً، ومن هنا ينشـأ القبول أو الرفـض»[١٠٧]. وهذا ما يفسـر لنا، كيف أن العاطفة اللطيفة تنشـأ لدينا تجاه الشـخص الذي ينقل الينا الكثير من البهجة والرضا[١٠٨].

والحقيقة أن هذا التقابل ما بين العقل والعاطفة نجده بصورة واضحة كذلك في نظرة هيوم للدين أو العاطفـة الدينية، ذلك أن جذر ما هو مقدس» يضرب أعمق في العقل، وينبع من الخصائص الجوهرية والعامة لطبيعة الانسان»[١٠٩]. كذلك فإن الرغبة والبغض يعودان إلى عاطفة الانسان ومشـاعره، ولم يعزوهما هيوم إلى العقل، ومن ثـم ليس من ثمـة تأثير ابسـتمولوجي للعقل في مجـال الأحكام الأخلاقيـة، لأن العقل في كليته مختلـف عن الدافع، والرغبة المنبثقة من الدافع لا يمكن أن تنشـأ من العقل بتاتاً[١١٠]»فالفضيلة تتميز بالسـرور والرذيلة بالألم الذي يمكن لأي فعل، شـعور أو ماهية أن تقدم لنا بمجرد النظر أو التفكيـر بها»[١١١]. إذ يمكـن وصف الأفعال بالاستحسـان أو الاسـتهجان، ولكـن لا يمكـن وصفهـا بالاتفاق أو عدمه مـع العقل، من ثم لا يمكن لهـذه الموضوعات أن تكـون موضوعاً للعقـل، إذ مـن المسـتحيل أن يكـون بالامكان التمييـز بيـن الخير والشـر أخلاقيـاً من خلال العقل، نظـراً لأن لذلك التمييز تأثيراً في أفعالنا التي لا يستطيع العقل وحده التأثير فيها. فالعقل والحكم يمكن، بالحقيقة أن يكونا السبب الوسيط للفعل وذلك من خـلال دفع العاطفة وتوجيهها، لكن لا أحد يزعم أن حكماً من هذا النوع، سواء أكان صحيحاً أم زائفاً، يكون مصحوباً بالفضيلة

أو الرذيلــة»[١١٢]. لذا كانت الأحــكام التي تنجم عن ملكة حكمنا، وســتبقى، الأقل امكانية في أن تضفي تلك الصفات الأخلاقية على الأفعال التي هي من أسبابها.

إن كلمة فضيلة، عند هيوم، تدل على»الثناء، بقدر ما تــدل كلمة رذيلة على اللوم: ولا أحد... يمكــن أن يلحق اللوم بمصطلــح، قبوله عموماً مفهوم لدى(الحس العام)، أو يضفي الثناء حيث يتطلب المصطلح عدم الاستحسان»[١١٣]. كذلك فإن الخبرة والعــادات((Custom، برأيه، هما الأساســان اللذان يشــكلان أفكارنا الاجتماعية(الجمعية)[١١٤]. ولكــي تكون الموضوعات على أســاس من الخبرة، كان من المتوجب أن نسمي كل صفــة أو فعــل للتعّقــل فضيلة، ذلــك الذي يصاحبه الاستحســان العام للبشرية، وكل صفة بالرذيلة، ذلك الذي يكون موضوع اللوم، فهكذا برأي هيوم يتم بناء الأساس الأخلاقي[١١٥].

ومــن هنــا كان لمذهب هيوم فــي الأخلاق جانبان، أحدهما(ســلبي) والآخر(ايجابي)، فهو ســلبي حينما يؤكــد هيوم علــى أن(العقل) ليس قــادراً على تحديــد التمييز بين الخير والشــر، وهــو ايجابــي حينما يؤكــد أن(المشــاعر) هي القــادرة على ذلك التمييــز، أي أنها قادرة على التمييز عبر العواطف[١١٦]. لذا كان من العبث، علــى حد تعبيــره» أن نتوقــع أن أي منطق، لا يتحدث عن المشاعر، ممكن أن يشترك في تبني مبــادئ أخلاقية أســلم(Sounder Principle Moral)[١١٧].

فبما أن ذلك هو ما يراه هيوم بالفعل ممتزجاً بأحكامنا الأخلاقيــة، لذا فإنه يقرر في أكثر من مناســبة مدى قوة(العاطفة) فــي توجيه(الفعل)، إذ فــي هــذا المعنى يندرج قولــه» حيثما أخذت شواغل الدين على الناس أمرهم نجد أن ليس في وسع الأخلاق أن تبلغ من القوة مبلغاً كافياً لكبح جماح المتعصب المتحمس»[١١٨]. إذ هنا في هذا النص اشــارة واضحة إلــى أن العاطفة الدينية أو الحماس الديني للمرء أقوى وأشــد أثراً على الفعل أو الســلوك ممــا يمكن أن يكون قد اعتاده والتــزم به المرء في ميــدان الأخلاق. لكن ذلك لا يعنــي نكران ما للعقل من دور هام في الفعل الأخلاقي، فإذا كانــت العاطفة تحثنا على الفعل وعلــى انجازه، فــإن العقل له مهمــة التبصير، فهو يدلنا على قيمة المنفعة من حيث هي أساس الفضيلة[١١٩]. فثانويــة الدور المنوط(بالعقل) إذ مــا قورن بدور(العاطفة) فــي الفعل عند هيوم، لا يعنــي بأي حال تجاهله لدور العقل في مجال السلوك الانساني.

وإذا كان المفهــوم المتعــارف عليه(للعقل) عنــد هيــوم بأنه لا يتســم بخصائــص تحريكية دافعيــة، فذلك لكــون أن هــذه الخصائص ذات ارتباط(بانفعالاتنا وعواطفنا ومشــاعرنا)، وهو عاجز عن تحريكنا للقيام بفعل ما أو التخلي عن أحد السلوكيات، لعدم قدرته على تحبيب بعض القضايــا أو جعلها بغيضة بالنســبة إلينا لمجرد اطلاعنا عليها وادراكنا لها بواســطته، أما غاية ما يســهم به(العقل) فهو تعريفنا بها فحسب ولا دور له في نزعتنا الباطنية ازاءها[١٢٠]. من هنا كان نقــد المذهب العقلي والتســليم لوحي القلب والعاطفــة ميزة لبحث هيوم في ميدان الأخلاق. لكــون الحكم الخلقي ينشــأ حين نتصور فعلاً ما بجميع علاقاته فتقوم فيها عاطفة اقرار أو انكار، فنقول عن الفعل انه خير أو شــر لا لكونه كذلك بل لنــوع تأثرنــا به[١٢١].»ولــو كانت الأخلاق بالطبع غير ذات تأثير على العواطف والأفعال البشرية، لكان من العبث أن نتعب أنفسنا في أن

نغرسها في الذهن، ولما كان هناك شيء أكثر عمقاً من ذلك الحشد من القواعد والمفاهيم، التي تزخر بها كتب المنظرين الأخلاقيين»[١٢٢].

ورغم ما تقدم، إلا أن العاطفة بمعناها الهيومي الصحيح» لا يمكن، بأي معنى، أن تدعى غير معقولة إلا عندما تكون قائمة على افتراض زائف أو عندما تختار وسائل غير مناسبة للغاية المحددة، فإن من المستحيل أن يكون بإمكان العقل والعاطفة أن يتعارضا أو يتنازعا على حكم الإرادة والأفعال. فاللحظة التي ندرك فيها زيف أي افتراض أو عدم مناسبة الوسائل للغايات، فإن عواطفنا تستسلم لعقلنا دون أية مقاومة. إذ من الممكن أن أرغب بأية ثمرة باعتبارها ذات نكهة ممتازة، لكن عندما أقنع نفسي بأنني على خطأ فإن رغبتي تتوقف»[١٢٣]. أما الحد الفاصل للقول بمعقولية الفعل البشري أو عاطفيته، فميدانه عملية التعاطف.

فهل التعاطف مجرد انفعال(ذاتي)، أم هو اندماج الذات مع الآخر، واستحضار الخيال لما هو خارج الذات لتكوين مفهوم جمعي انفعالي يؤثر ايجاباً في الذات وعلى الآخر؟.

المحور الرابع/ في التعاطف وأسس المشاركة الوجدانية

في هذا الموضوع يجدر أن يكون الحوار في محور أساسي يتضمن ماهية المشاركة الوجدانية بوصفها نمطاً من الحاسة الانفعالية. فبما أن الانفعالات عند هيوم لا تخضع لأي انطباع من تحسينات العقل والخيال reason and influence))، وإن تلك نظرية خاطئة برأيه[١٢٤]. وإن الأفكار الخلقية، والتي هي كغيرها من الأفكار، صوراً لانطباعات حسية، يمكن لها أن تكون(حاسة خلقية)، تلك الحاسة التي تنطبع بمؤثر معين لتكون صورة هذا الانطباع فيما بعد فكرة خلقية عن فضيلة ورذيلة.

لكن ما لا يفترضه هيوم هو وجود»حاسة خلقية» خاصة أو»ملكة أخلاقية خاصة»، ذلك أن ظواهر الحكم الأخلاقي يمكن تفسيرها عبر العمليات المركبة للتعاطف[١٢٥]. إذ كما يؤكد»الأخلاق يمكن الشعور بها أكثر بما يتم الحكم عليها. رغم ان هذا الشعور أو الاحساس هو بصورة عامة لطيف ونبيل إلى حد اننا نكون ميالين لأن نخلطه بالفكرة، تبعاً لعادتنا العامة في اعتبار كل الأشياء هي نفسها، نظراً لما يوجد من تشابه قريب بين بعضها البعض»[١٢٦].

فحسب هيوم، نحن لا نقوم بأي استدلال بأن فعلاً ما(فاضل) لأنه أدخل علينا السرور»بل لدى الشعور بأنها تسّر، بطريقة خاصة ما، نشعر بالحقيقة، أنها فاضلة. الحالة نفسها بالنسبة لأحكامنا المتعلقة بكل أنواع الجمال، الأذواق والأحاسيس، فقبولنا لها يتضمن السرور المباشر الذي تحمله لنا»[١٢٧]. فالمشاعر والعواطف هي ما تنشأ منها تصوراتنا الأخلاقية، والأفعال الخيرة أو الرذيلة علامة على خاصية عقلية فاضلة أو رذيلة، الأفعال تعكس خصائص الشخصية، إن فاضلة أم رذيلة[١٢٨]. من هنا كان التساؤل عن أهم المبادئ التي تحكم البشرية والسلوك الأخلاقي عند هيوم، هو بحد ذاته سؤال عن الطبيعة الإنسانية[١٢٩] وطبيعة الانفعال. ما دامت الأدلة الأخلاقية ليست سوى»الخلاصة التي تتعلق بأفعال الانسان، مستمدة من اعتبار

دوافعه ومزاجه ووضعه»[١٣٠].

كذلك، في كتابه(بحث في الذهن البشـري) يقابـل هيوم ما بين مصطلحي الفلسـفة الخُلقية، وعلم الطبيعة الإنسـانية[١٣١]، ويعقب على ذلك مترجـم الكتـاب أن مصطلـح(moral) الـذي ترجمـه عن أصل النص، لـه فضلاً عن معنى الأخـلاق المتـداول، معنـى تقابل بـه الطبيعي والفيزيائـي[١٣٢]. وكل عناصـر الأخلاقيـات» التعاطفـات» – حسـب هيـوم- معطاة بشـكل طبيعـي، لكنها عاجزة بذاتها عن تشـكيل عالم أخلاقـي، وهذا التضّمن يعبر عن كنه المشـكلة الأخلاقية[١٣٣]. وعلى حد تعبير ديوي» الأخلاق تتعلـق بصفة عامة، بالسـيطرة علـى الطبيعة البشـرية. وعندمـا نحـاول السـيطرة على أي شـيء فإننا نعلم تماماً مـا يعترضنا. وعلى هذا ربما اتجه الأخلاقيون إلـى التفكير في الطبيعة الانسـانية علـى أنهـا لترددها في الاستسـلام للسيطرة ولثورتها على النير»[١٣٤].

ففي رأي هيوم إذا كنا نسـعى فقط لارضاء ذواتنا، ومهما كنا نُبدو لأنفسـنا بأننا نشارك في مصالـح الآخريـن، إلا أننا في دواخلنا نسـعى للعمل على تحقيق سعادتنا أو رفاهيتنا[١٣٥].

لكنـه « لـو أن مبادئنا الأنانية والشـريرة مهيمنـة هيمنة طاغية علـى مبادئنا الاجتماعية والفاضلة، كما يؤكد بعض الفلاسفة، لكان علينا، دون شـك، أن نحمل فكـرة الاحتقـار للطبيعة البشـرية»[١٣٦]. فالفضيلة الاجتماعية المشـتقة من المشـاعر الانسـانية هي حجر الأساس، أو الجزء الرئيسـي من الأخلاق، الذي يشـير إلى الجنس البشري والمجتمع[١٣٧].

ويتحدث هيوم في مثال، عن امكانية شاعر أو كاتب ماهر في ايصال فكرة مسرحية بطريقة أشبه ما تكون بالسحر، حينما»يعبر أي حدث عن رغباتنا، وتشتيت سعادة الشخصيات المفضلة، نشعر بالقلق... ولكن حينما نجد ان معاناتهم تلك تنبع من خيانة أو قسوة أو ظلم[١٣٨] من خصم أو عدو، فإن صدورنا تتأثر بأشد مشاعر الاستياء ممـن كان سـبباً في تلـك المصائـب»[١٣٩]. لذا فـإن مبدأ التعاطف هو على النقيض مما أشـار إليـه هيوم بالنقد، أي عكـس الانانية، وذلك بما يحملـه مـن ايثـار وغيرية، وهو عكـس الحقد والكره[١٤٠] والاحتقار((contempt، بما يحمله مـن شـفقة(Compassion) وحـب واحترام للإنسـانية[١٤١]. لذا علينا أن نتسـائل، كيف تتم عمليـة التعاطف وفق ما أورده هيوم في القسـم الثاني من رسالته عن الطبيعة البشرية ؟.

لا بد من الاشـارة أولاً إلـى أن ضرورات الحياة والتعاطف تجعل الناس يعتادون ويألفون قواعـد عامـة تعين علـى تحقيق التـوازن بين الأفعـال الغريزيـة والاسـتعدادات والميـول والملابسـات الخارجيـة. فهـذا منهـج للحيـاة والعمـل وليـس هنالك أخلاق دون احساسـات ومشـاعر[١٤٢].»إذ مـا مـن صفة مـن صفات الطبيعة البشـرية ملحوظة سواء في نتائجها أو بذاتها أكثر من تلك النزعة التي نمتلكها للتعاطف مـع الآخرين ولتلقي آرائهم وميولهم، مهما تكن مختلفة أو حتى مناقضة لميولنا وآرائنا»[١٤٣].

من هنـا كان(للخيـال) الدور الأسـاس في التعاطف بمعناه الهيومي، إذ « لا شيء في الفكر يتجاوز الخيال، لا شـيء ترانسدنتالي، لأن هذه المبادئ هي فقط مبـادئ لطبيعتنا... إن مرجعاً وحيداً سـوف يتيح لهيوم أن يقدم اتفاق الطبيعة البشرية مع الطبيعة على انه ليس اتفاقاً عرضياً،

غير محـدد، ممكن الوجود: إنــه الغائية»[١٤٤]. فالتعاطـف عنـد هيـوم ليـس محـدداً باللحظة الراهنة، بل هو شـعور ناتج من خلال شعورنا بالتواصـل مع آلام ومسـرات الآخريـن[١٤٥]، والتـي وإن لم تكن توجد بعد، لكننا نتوقعها فقط بقوة الخيال[١٤٦]. وهذا يؤكد مدى ارتباط مفهوم العاطفة بالظروف والأحوال والملابسـات التي تصاحب(الانفعالات) أو(العواطف) ذاتها[١٤٧].

يـرى هيوم في الأشـخاص الذيـن هم أكثر تفاخـراً، والذيـن لديهم فـي أعين النـاس أكثر الأسـباب للكبريـاء والتفاخر، ليسـوا دائماً هم الأسـعد، كما إن الذين أشد تواضعاً ليسوا دائماً هـم الأتعس[١٤٨]ونحـن إذ نتخيل أنفسـنا أكثر سـعادة وكذلك أشـد فضيلة أو جمـالاً» عندما نظهـر هكـذا لأنفسـنا لكننا نظـل أكثـر تباهياً بفضائلنا من مسراتنا»[١٤٩]. فالعاطفة أو الفكرة الفاضلة عند هيوم تفضي إلى المسـرة ولا تنشأ عنها ولذلك يقول: « انني أشـعر بالسرور حين أعمـل خيراً لصديق لأنني أحبه، لكنني لا أحبه من أجل تلك المسرة»[١٥٠].

والحـق أن التعاطف لا يقتصـر على كونه المصدر الرئيسـي للفضيلة عنـد هيوم، بل هو مبدأ من نوع ما يحرك بصورة مغناطيسية كيان الكائـن بكامله، وهو قوة شـبه مادية أو وسـط متقلب لنقل العواطف بسـهولة مـن كائن مفكر إلى آخر، إذ عقول الناس أشبه بالمرايا لبعضها البعـض. وهنـا يظهـر دور الخيال فـي عملية التعاطف، ذلك أن النظام الخيالي بانعكاسـه من مـرآة على مرآة أخرى، هـو مجتمع يقوم على الاعجـاب المتبادل الذي يولد فيـه كل انعكاس انعكاساً آخر الذي يولد بدوره ثالثاً وهكذا، لتمثل حلقـة العواطـف الدائرية هذه الزمـن الدائري للنظام الخيالي[١٥١].

فالشـعور الأخلاقي الحقيقي لا يمكن إلا أن يكون شـعوراً بسعادة الجنس البشري، واستياء من بؤسـهم[١٥٢]. والمرء حينمـا يصدر أحكاماً أخلاقية ينزل عن وجهته الخاصة ويتخذ وجهة مشـتركة بينه وبين الآخريـن، فتجيء أحكامه كليـة. ذلـك أن أسـاس الأخـلاق التعاطف، أو عاطفة الزمالـة، أو « الانسـانية» التي تحملنا على محبة الخير للناس جميعاً[١٥٣]. من هنا كان التعاطف بـرأي هيوم هو» المصدر الرئيسـي للتمييزات الأخلاقية لا سـيما عندما نفكر انه ما من اعتراض يمكن اثارته ضد هذه الفرضية في حالة واحدة، وهو مـا لا يمتد إلى كل الحالات، فمـن المؤكد أن العدل مقبول لا لسـبب إلا لأنه ينزع الـى الصالح العـام، والصالـح العام هو محايد بالنسـبة لنا. الا بقدر ما يجعلنا التعاطف نهتـم به»[١٥٤]. لذا كان من الضروري بالنسـبة لنـا، في كل أحكامنا الهادئة وخطابنا فيما يتعلق بشـخصيات الآخرين، اهمال جميع الاختلافات أو التمييزات، وجعل اشـاراتنا أكثر اجتماعية، لتكون عامة أو كلية[١٥٥].

وليس التعاطـف أو التواصل إلا قلب فكرة إلـى انطبـاع بقـوة الخيال» ومـن الملاحظ أن العواطـف الحية تصاحب دائمـاً الخيال الحي. في هذا المجـال، وكذلك في المجالات الأخرى تتوقـف قـوة العاطفـة علـى مزاج الشـخص إلى حـد كبير وكذلـك على طبيعـة الموضوع ووضعـه»[١٥٦]. وفي ذلـك تقابل واضح ما بين نظرية المعرفة والحس المشـترك أو العواطف والانفعالات عند هيوم، فهو إنما يفسر التعاطف اسـتناداً إلى مبدأ الترابـط[١٥٧](associative) التي فسـر بها الاعتقادات العلية[١٥٨]. وتفسيره

لذلك أن « العادة والعلاقة تجعلنا ندخل إلى أعماق عواطف الآخرين، مهما يكن الحظ الذي يفترض انه يواكبهم أ فإنه يمثل لنا عن طريق الخيال ويعمل كما لو أنه لنا بالأصل، إننا نسر لسرورهم ونحزن لحزنهم، فقط بدافع التعاطف»[١٥٩].

يقول هيوم: « ان المودة والرحمة والتعاطف هي الحركات الوحيدة التي كانت حتى الآن غريبة على العقل، ما دام التمييز الدقيق بيني وبينك هو ما تم اقصاؤه في هذه الحركات أو المشاعر»[١٦٠]. لذا فحينما نشارك الآخرين وجدانياً في عواطفهم، فإن هذه العواطف تظهر أولاً في عقلنا كأفكار خالصة وتتصور على أنها تخص شخصاً آخر تماماً كما نتصور أي مسألة من مسائل الواقع. وبعد هذا تتحول هذه الأفكار إلى العواطف التي تمثلها[١٦١]»فنحن لدينا فكرة حية عن كل شيء ذي صلة بنا. وكل المخلوقات الحية ذات صلة بنا نتيجة التشابه. لهذا فإن أشخاصهم، مصالحهم، عواطفهم، آلامهم ومسراتهم[١٦٢] يجب أن تؤثر فينا بالطريقة ذاتها وتبعث عاطفة مماثلة للعاطفة الأصلية، نظراً لأن الفكرة الحية تتحول بسهولة إلى انطباع»[١٦٣]. وعلينا أن نسمح بأن يكون التعاطف هو الغالب على اهتمامنا بأنفسنا، لا بل جعل التعاطف مع الاشخاص الذين هم بعيدون عنا، أكثر قداسة من التعاطف مع الاشخاص القريبين والمتجاورين[١٦٤].

وبذلك فاننا ندرك أنفسنا بصورة حيوية، وكل ما يتعلق بنا ندركه بحيوية متناسبة مع درجة قربه بنا، ومن ثم فإن الفكرة التي نكتسبها عن الآخرين تحصل على حيوية من الحيوية التي ندرك بها أنفسنا وبذلك ترتد هذه الفكرة إلى انطباعها الأصلي، إذ ليس الفرق بين الفكرة والانطباع إلا في درجة الحيوية[١٦٥]. مع ملاحظة ربط هيوم ما بين مدى قوة العاطفة وعمر المرء، إذ يقول في ذلك: «ان شاباً يتصف بعواطف حامية سيكون من المعقول أكثر التأثير عليه بصور الحب والرقة من رجل أكثر تقدماً في السن يتلقى مسراته من أفكار فلسفية حكيمة تتعلق بالسلوك بالحياة واعتدال في العواطف»[١٦٦].

والأفكار تتزود بحيوية الانطباعات وتنتقل مشبعة بها إلى الذهن فتؤثر فيه. على نحو ما تؤثر الانطباعات التي استمدت منها هذه الأفكار، وإذا كان ذلك ماثلاً في مجال الاعتقاد، فإن الشأن ذاته في التعاطف الذي يمثل نزعة مشاركة الآخرين في الميول والمشاعر، فعملية التعاطف إنما تتم على مرحلتين، في المرحلة الأولى نتعرف على عواطف الآخرين بانطباعها فحسب، بعلاقاتها الخارجية وهذه العلاقات تستدعي في فكرتنا عن العواطف التي صحبتها في الماضي، لتستحيل هذه العواطف المصاحبة للفكرة في المرحلة الثانية إلى عواطف تخالج نفوسنا ونستشعرها في حرارة[١٦٧]. لذا كان التعاطف، في نظر هيوم، مبدأ قوي جداً في الطبيعة البشرية، كما أنه ذو تأثير كبير على احساسنا بالجمال»عندما ننظر إلى الأشياء الخارجية وكذلك عندما نحكم على الأخلاق. اننا نتبين أن له قوة كافية لكي تمنحنا أقوى مشاعر الاستحسان، عندما يعمل بمفرده دون تلاقيه مع أي مبدأ آخر، كما في حالات العدل، الولاء، العفة والسلوك الحسن»[١٦٨].

ان مبادئ الانسانية والتعاطف تدخل بشكل عميق في كل مشاعرنا، ولديها قوة في

التأثيـر، بحيـث تمكنها مـن اثارة أقـوى اللوم والاستحسـان(Censure and Applause) [١٦٩]. لذا كان لا بد لنا أن نتخلى عن النظرية التي تفسـر كل عاطفة أخلاقيـة بمبدأ»حب الذات»، فليسـت المنفعة مصـدراً للمشـاعر الأخلاقية، بل أن كل شـيء يساهم في اسعاد المجتمع، بما يمثل من استحساننا وحسن نيتنا، هو المبدأ الذي يفسر إلى حد كبير أصل الأخلاق[١٧٠].

كذلـك فـإن التعاطـف يتوقـف علـى نحو كبيـر علـى عنصـر التصويـر، والأخـلاق والابسـتمولوجيا متلازمـان في هـذا الاطار، بحيث إنه من دون العقل الذي يصنع الصورة فإن مشـاعرنا المتعاطفة ستظل خاملة وهامدة[١٧١]. ومـن الواضح» أن الأفـكار الخاصة بعواطف الآخرين تتحـول إلى الانطباعـات التي تمثلها بذاتها وأن العواطف تنشأ على نحو متطابق مع الصور التي نشـكلها عنها. هذا كله شيء نلمسه في أبسـط تجربـة ولا يعتمد علـى أية فرضية فلسفية»[١٧٢]. لذا كان من الواضح أنه لدى النظر إلى الحالة المسـتقبلية الممكنة أو المحتملة لأي شـخص يمكننا أن ندخل في تلك الحالة مع فهم واضح إلى حد يجعلها شـأننا نحن[١٧٣]» وبتلك الطريقة نحس بآلام ومسـرات لا تخصنا وليس لها في اللحظة الراهنة أي وجود حقيقي»[١٧٤].

إن العليـة والتشـابه والاتصـال علاقـات أساسية وضرورية لعملية التعاطف، فبالاضافة الـى عمليات الارتباط العلية للشـعور المشـار اليهـا بوصفـه مـن آثـاره المألوفة. نجـد أن» التشـابه والاتصال» هما ما يسـتطيعان تحويل فكرة من الأفكار إلـى انطباع من الانطباعات. والى جانب هـذه العلاقات الثلاث نجد علاقات أخـرى ثانوية تتمثل فـي صلـة الدم»القرابة» والتعليـم والمادة. وجميع هـذه العلاقات عندما تتحد معاً، تنقل الانطباع أو الوعي بشخصنا إلى فكرة عواطف الآخرين وتجعلنا نتصورها قوية وأكثر حيوية[١٧٥]. فنحـن نحصل على معرفتنا بعواطـف الآخرين من خلال ملاحظة آثار هذه العواطف. فالاختلاف بين الأفكار والانطباعات يُحدد، من خلال القوة والوضوح. ففكرة حيوية يمكن – بالتالـي – أن تتحول إلى انطباع وذلك مـا يحدث في حالة التعاطـف[١٧٦]. وحين تنتقل أية عاطفة لنا عن طريق التعاطف» يتم التعرف عليهـا فقط مـن خلال نتائجها ومـن خلال تلك العلامـات الخارجيـة فـي السـيماء والمحادثة التـي تحمل فكرة عنها. هـذه الفكرة تتحول في الحال الى انطباع[١٧٧] وتكتسب درجة من القوة والحيوية بحيث تصبح هي العاطفة نفسها بالذات وتبعث عاطفة مماثلة للعاطفة الأصلية»[١٧٨].

تلـك هي فـي نظر هيـوم فلسـفة التعاطف أو(المشـاركة الوجدانيـة)، فالتعاطف وحده ما يثير فينا الاهتمام بسـعادة اخواننا في الانسانية. لأنـه مضمونه في نهاية الأمـر هو ذلك التعبير عن تأثير الوسط الاجتماعي بالانسان واكتسابه لمعارفـه وعواطفه من خلاله، مـادام»كلاً من صـوت الطبيعـة(The voice of natuer)، والتجربة، يعارضان النظرية الأنانية»[١٧٩].

خاتمة:

يمكن الاشارة هنا إلى أبرز نتائج البحث، وعلى النحو الآتي:

١- تستلزم اعادة بناء هيكلية رسالة هيوم في الطبيعة البشرية، لا النظر في مدى حضور منهج التجريبية أو المعرفة في تشكيل الانفعالات، بل النظر في مدى قدرة العواطف ذاتها في تحويل العوامل السيكولوجية إلى نمط من انثروبولوجيا الفهم الانساني بما يحمله من تآلف وتناغم ما بين انطباعاته وأفكاره. فليس ثمة عند الانسان إلا انطباعات حسية وأفكار، وهيوم إنما حدد كلمتي»العاطفة» و»الانفعال» فيما يسمى بالانطباعات الفكرية القوية.

٢- لا فرق اصطلاحي ما بين الانفعالات (Emotions)) والعواطف(Passions) عند هيوم إلا في كون الأولى أكثر شدة من الثانية، مع أن كلا المصطلحين الانجليزيين قد يترجمان إلى المعنيين، أي(الانفعال، والعاطفة). والمهم بالنسبة الينا، إن اسهام هيوم الحقيقي جاء في التمهيد لسيكولوجيا السلوك أو سيكولوجيا العواطف، لأنه استخدم مصطلح"الانفعالات" ليعني ما يتحدث عنه علم النفس اليوم باسم"العواطف" حتى أن الأدلة الأخلاقية بالنسبة له لم تكن سوى الخلاصة التي تتعلق بأفعال الانسان مستمدة من اعتبار دوافعه ومزاجه ووضعه، ولذلك يصدق القول إن علم الطبيعة الانسانية عند هيوم علم يقدم أقوى الأسس والعُمد التي يمكن أن يقام عليها العلم الانثربولوجي لارتباطها الوثيق بمكنونات السلوك الانساني.

٣- كذلك أدى توافر النزعة الاجتماعية في ثنايا شخصية هيوم، السعي إلى تأسيس ما يشبه المناظرة الحقيقية ما بين انثروبولوجيا العواطف أو الانفعالية، وعلم في الطبيعة الانسانية يقوم على التجربة والمشاهدة في الحكم على أفعال الناس. من هنا جائت آراء هيوم في ميدان الأخلاق والاجتماع أكثر من علم النفس في كتابه الرسالة بقسميه(الثاني والثالث)، وذلك لأن العنصرين الأساسين في هذين الجزأين هما(الانفعال والاجتماع). فهيوم الذي خصص القسم الأول من كتابه»الرسالة» للرد على العقليين، متجاهلاً في ذلك نظرية هوبز، خصص»القسم الأخلاقي» بالرد على نظريات الأنانية معتبراً إياها هدفه الأول، وبذلك يكون هيوم قد سبق جون ديوي وغيره في تنمية علم أكثر مناسبة للطبيعة الانسانية، ذلك أن تفسيرات هيوم لهذه الطبيعة لم تعزل الفرد عن ارتباطه ببيئته المادية والاجتماعية. وما مصطلح»العادة»(Custom) أو"العُرف" إلا تأكيد هيومي على أثر هذا المفهوم في تكوين سلوكيات الأفراد.

٤- لم يتخذ هيوم مناهج تجريبية صارمة في دراسة أنماط السلوك البشرية، بل كانت المعادلة الأكثر ظهوراً لديه هي في الحس والعقل، والعاطفة والعقل، وكان للخيال الدور البارز في ربط العلاقة الأخيرة. من هنا كانت(التوفيقية) هي النواة الحقيقية لتكوين توازن فعلي ما بين"العقل والعاطفة"، فلم يكن هيوم ساخراً من العقل في مجال تفسيره لأهمية العواطف أوالانفعال. كما يُشاع ذلك عنه، ذلك أن القيمة التي منحها هيوم للتجربة جائت كبداية حقيقية لفهم الانسان،"فعلم الانسان" هو العلم الوحيد القادر على فهم كنه الطبيعية البشرية.

٥- على الرغم من تصنيف هيوم لأنواع

العواطف وأسباب ظاهريات الانفعال، إلا أنه يرى تكاملاً واتصالاً لا بد منه بين نمطي العاطفة(المباشرة وغير المباشرة)، لأن علاقات التجاور والتشابه والعلية حاضرة في وصفه لتفرعات العاطفة الانسانية وتكويناتها الانفعالية. فالاصالة المباشرة لنظرية هيوم هي في كونها قدمت اختلاف الانفعالات المباشرة وغير المباشرة كازدواجية، وجعلت حتى من هذه الازدواجية طريقة دراسة للانفعال عموماً، بل فهم وتوليد هذه من تلك. وهذا بدوره كان نتيجة ظاهرة لبيان صلة نظرية الانفعال بالمعرفة عند الفيلسوف.

٦- وأخيراً، إن التعاطف أو المشاركة الوجدانية معيار دقيق ما بين الأدلة الأخلاقية وطبيعة الانفعال عند هيوم، وهو المعبر الحقيقي لعملية الايثار الاجتماعي والميل الى حب الانسانية، فالتعاطف أساس الأخلاق الغيرية. وما جعل التعاطف قائماً على نحو كبير على عنصر التصوير(الخيال) هو أن التعاطف أو التواصل ذاته ما هو إلا قلب فكرة الى انطباع بقوة الخيال، نظراً لسيكولوجيا أسسه الوجدانية من جهة، وأثره في قوة وحيوية عنصر المشاركة الجماعية في انسانوية الانفعالات من جهة أخرى. فالسلوك البشري غير محكوم إلا بما ندين به للمجتمع وأنفسنا. والإرادة البشرية هي باستمرار محصلة الانفعالات والعواطف، وذلك بالتحديد هو ما مهد للالزام الأخلاقي عند هيوم أن يكون مستمداً في أصوله الأولى من هذه العملية، أي"التعاطف".

الهوامش:

(١) لهذا الكتاب طبعتان، الأولى ١٧٤٨، والتي جاءت بعنوان محاولات فلسفية في الفهم البشري، والثانية اعيدت بالتسمية المعروفة»مبحث في الفهم البشري ١٧٥٨".

(٢) نشر هيوم كتابه» الرسالة» لأول مرة باسم مجهول عام ١٧٣٩، ثم نشر ملخصاً لها في العام الذي يليه.

(٣) اعتمدنا على ترجمة د. محمد محجوب لنص هيوم(An Enguiry Concerning Human Understanding)، لكن هذا التنويه لهيوم لم نجده في ترجمة محجوب، فنقلناه من ترجمة د. موسى وهبة للكتاب والذي جاء بعنوان»مبحث في الفاهمة البشرية"، على اعتبار أن التنويه جاء في الطبعة الأولى لأصل الكتاب ١٧٥٥ ولم يأتِ في الطبعة الثانية ١٧٧٧ والمعتمد عليها من قبل المترجم الأول، والتي نشرت بعد وفاة هيوم بعام واحد.

(٤) هيوم، مبحث في الفاهمة البشرية، ترجمة. موسى وهبة، دار الفارابي بيروت – لبنان، ط ١، ٢٠٠٨، ص ١٩.

(٥) يقول هيوم في ذلك: « لقد كانت تراودني فكرة وهي أن حاجتي للنجاح عند نشري لرسالتي في الطبيعة البشرية كانت تعود للأسلوب أكثر من المادة، وانني ارتكبتُ نوعاً من سوء التقدير البالغ في ذهابي الى النشر بصورة مبكرة جداً. لذلك، طرحتُ الجزء الأول من ذلك العمل مجدداً في(البحث) المتعلق بالفهم البشري الذي تم نشره حين كنتُ في تورين، لكن هذا العمل لم يحقق في البداية أي نجاح أكثر مما حققت الرسالة»(هيوم، ديفيد، أبحاث أخلاقية سياسية وأدبية، ترجمة، عبد الكريم ناصيف، دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق – سورية، ط ١، ٢٠١٦، ص ١١).

(٦) هيوم، ديفيد، أبحاث أخلاقية سياسية وأدبية، ص ٧.

(٧) وهكذا خصص هيوم القسم الأول من كتابه»الرسالة" للرد على العقليين، متجاهلاً في ذلك نظرية هوبز، في حين خصص»القسم الأخلاقي" بالرد على

نظريات الأنانيــة معتبراً إياها هدفه الأول(درويش، بهــاء، ديفيــد هيوم كمثــال لمعضلة التنويــر، مجلة الاســتغراب، المركــز الاســلامي للدراســات الاســتراتيجية – بيــروت، عدد خاص ١٨، الســنة الرابعة، شتاء ٢٠٢٠، ص ٢١٢).

(٨) محمــود، زكــي نجيب، رســالة في الطبيعة البشــرية لهيوم، مجلة تراث الانســانية- مصر، العدد ١، سنة ١٩٦٣، ص ١٠٥-١٠٦.

(٩) علــى الرغم مــن أن العديد من الباحثين والشــارحين لفلســفة هيوم يشيرون – بشكل أو بآخر – إلى أهمية كتابه» بحــث في مبادئ الأخلاق»، واعتراف هيوم نفسه بأن هذا البحث هو أفضل أعماله على الاطلاق، إلا أن مــا لاحظناه – خلال اعدادنا لهذ البحث – هو تركيز أغلب هؤلاء الباحثين على كتابه» الرســالة» بشــكل أوفر من» المبادئ» خلال عرضهم لفلسفته الأخلاقية.

(١٠) الترجمة المتعارف عليها لمصطلح Passions هو العواطف، وهي الترجمة التي اعتمدها(عبد الكريم ناصيف) خلال ترجمته لرســالة هيوم في الطبيعة، في حين فضلّ(وائل علي سعيد) ترجمتها»بالأهواء" بدلاً عن العواطف لأســباب وجدها الأنسب خلال تبريــره لذلك في تقديمه لترجمة القســم الثاني من رســالة هيــوم، أي الجزء الخــاص بالعواطف أو الأهــواء كما ارتــأى أن يترجمها، مع أن ســعيد يقــول في ذات الصفحة من التقديم لشــرح مراحل نشــر مشروع الرسالة: «أن هيوم نشر مجلدين من كتابه في الطبيعة البشــرية الأول منها في المعرفة والثانــي في الانفعالات، وفي الســنة التالية نشــر المجلد الثالث والأخير في الأخلاق" أي انه قال عن القسم الثاني»انفعالات" ولم يقل في»أهواء"(هيوم، ديفيد، رســالة في الطبيعة البشرية - الجزء الثاني في الأهواء، ترجمة وتقديم، وائل علي سعيد، الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة – دمشق، بلا ط، ٢٠٠٨، ضمن التقديم، ص ٩).

(١١)نورمــان كيمــب ســميث Norman kemp smith(١٨٨٢-١٩٥٨)، فيلسوف اسكتلندي، كان أستاذ علم النفس في الفترة ١٩٠٦-١٩١٤، والفلسفة في الفتــرة ١٩١٤-١٩١٩ في جامعة برنســتون، وأســتاذ المنطق والميتافيزيقا فــي جامعة»ادنبرة" ١٩١٩-١٩٤٥، من بيــن أعماله المعروفة، تعقيب على نقد العقل المحض لكانط، ودراسات في الفلسفة الديكارتية، وفلسفة ديفيد هيوم(ويكيبيديا، الموسوعة الحرة،الرابــط، https، snaccooperative.//، w٦sq٩gk١or، http/٩٩١٦٦/،org/ark //، cb١٢٣٩٠٧٠٤٤/١٢١٤٨/،data.bnf.fr/ark).

(12) Smith، Norman kemp، The Pilosophy of David Hume A Critical Study of its origins and central doctrine، introduction by. Don Garrett، London، Macmtlla،1941 ، p 26.

(١٣) مدين، محمد محمد، فلسفة هيوم الأخلاقية، اشراف: أحمد عبد الحليم عطية، دار التنوير بيروت – لبنان، بلا ط، ٢٠٠٨، ص ١١-١٢.

(١٤) أي مواقف شافتسبري، وهاتشيسون، وبطلر وآخرين غيرهم..

(١٥) كوبلســتون، فردريــك، تاريــخ الفلســفة، المجلــد الخامــس، ترجمــة: محمــود ســيد أحمــد، مراجعة وتقديم. امام عبد الفتاح امام، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة – القاهرة، ط ١، ٢٠٠٣، ص ٤٢٧.

(١٦) هيوم، أبحاث أخلاقية سياسية وأدبية، ص ٢٧٩.

(17) Hume، David، An Enquiry Concerning The Principles of morals، London، Printed for A. Millar، over-against Catherine-street in the Strand. 1751، p 28.

(١٨) هيوم، ديفيد، رســالة في الطبيعة البشــرية، ترجمة، عبــد الكريم ناصيــف، دار الفرقد للطباعة والنشــر والتوزيع، دمشق – سورية، ط ١، ٢٠١٦، ص ١٤.

(١٩) يأتي هذا التقســيم تبعاً إلى تأكيد نورمان ســميث إلى وجود نموذجين مختلفين من السيكولوجيا في رسالة هيوم، وهما سيكولوجيا مستمدة من فيلسوف الحاسة

الخلقية»فرنسيس هاتشسون"، وسيكولوجيا تعتمد على مفهوم المماثلة analogy وهي سيكولوجيا مستمدة كلياً من العلوم الطبيعية(نقلاً عن: مدين، محمد / فلسفة هيوم الأخلاقية، ص ٣١).

(٢٠) مدين، محمد، فلسفة هيوم الأخلاقية، ص ٣٢.

(٢١) هيوم، أبحاث، ص ١٦.

(٢٢) هيوم، دافيد، تحقيق في الذهن البشري، ترجمة.محمد محجوب، المنظمة العربية للترجمة، بيروت- لبنان، ط ١، ٢٠٠٨.، ص ٢٩.

(٢٣) دولوز، جيل، التجريبية والذاتية» بحث في الطبيعة البشرية وفقاً لهيوم"، ترجمة. أسامة الحاج، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، ط ١، ١٩٩٩، ص ١٧.

(٢٤) هيوم، الرسالة، ص ١٥.

(٢٥) لذا يقول هيوم: « من الواضح أن لكل العلوم علاقة تكبر أو تصغر بالطبيعة البشرية، وإنه مهما يمكن أن يبدو ابتعاد بعضها عنها أحياناً، فإنها تظل تعود اليها من هذا المنفذ أو ذاك. إذ حتى الرياضيات، الفلسفة الطبيعية والدين الطبيعي تعتمد كلها، وبمقياس ما، على علم الانسان، نظراً لأنها تقع ضمن معرفة الناس ويحكم عليها من خلال قواهم وقدراتهم»(هيوم، الرسالة، ص ١٣).

(٢٦) هيوم، الرسالة، ص ١٤.

(٢٧) المصدر نفسه، ص ١٧.

(٢٨) أحمد، محمود سيد، الأخلاق عند هيوم، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، بلا ط، ١٩٩٢، ص ص ٥٢، ٧٨.

(٢٩) هيوم، أبحاث، ص ٢٩٤.

(30) Hume، David، Principles of morals، p 86.

(٣١) يتفق هذا مع ما جاء به –فيما بعد- جون ديوي في كتابه»الطبيعة البشرية"، إذ يعبر هذا الكتاب عن نظرية ديوي الأخلاقية القائمة على أساس من»علم النفس الاجتماعي والنمو"، فالأخلاق ينبغي أن تتأسس على الطبيعة البشرية. فالشخصية الانسانية والمجتمع الانساني يتكونان من التأثيرات المتبادلة بين هذه الطبيعة البشرية والبيئة الاجتماعية والمحيط الطبيعي، والسلوك في جوهره اجتماعي(ديوي، جون، الطبيعة البشرية والسلوك الانساني، ترجمة وتقديم: محمد لبيب النجيحي، تصدير. مدين، محمد، المركز القومي للترجمة – القاهرة، بلا ط، ٢٠١٥، ص - أ- / ضمن التصدير).

(٣٢) هيوم، الرسالة، ص ١٥.

(٣٣) أحمد، محمود سيد، الأخلاق عند هيوم، ص ٥٢.

(٣٤) هيوم، المصدر السابق، ص ٤٦٩.

(٣٥) دولوز، التجريبية والذاتية، ص ٣٩.

(36) Hume، David، Principles of morals، p 117.

(37) Ibid، p 15.

(٣٨) الشيخ، محمد، في فلسفة الاعتقاد، مجلة التفاهم، سلطنة عُمان، العدد ٥٨/٥٧، سنة ٢٠١٧، ص ٧٠.

(٣٩) سيكولوجيا الفكر يوضحها مترجم كتاب دولوز بأنها»القوة المفكرة عند الانسان» أو ملكة الفهم والمعرفة لديه. أما دولوز فيرى أن كل الكتّاب الجيدين يتفقون على الأقل بصدد استحالة»سيكولوجيا للفكر"، وهذا هو السبب الذي ينتقدون لأجله، بهذا القدر الكبير من الاهتمام كل مماثلة للوعي مع المعرفة وهم يختلفون فقط بصدد تعيين العوامل التي تعطي الفكر طبيعة(دولوز، التجريبية والذاتية، ص ١٩).

(٤٠) يقول هيوم في هذا النوع من الاقتران: « إن بامكاننا أن نتصور أننا نشعر بالحرية في أنفسنا، لكن المتفرج يمكنه عموماً أن يستدل على أفعالنا من دوافعنا وشخصيتنا، بل حتى حين لا يستطيع، فانه يستخلص بصورة عامة أن بامكانه ذلك لو كان على معرفة تامة بكل ظرف من ظروف وضعنا ومزاجنا والمنابع الأشد سرية لفطرتنا وميولنا»(هيوم، الرسالة، ص ٤٢٠).

(٤١) دولوز، المصدر السابق، ص ٥-٦.

(٤٢) هيوم، الرسالة، ص ٣٢٩.

(٤٣) جون ديوي، الطبيعة البشرية، ص ٢١-٢٢.

(٤٤) يقـول ديوي: « إن فهم العـادة وأنواعها المختلفة هو مفتـاح علم النفس الاجتماعي، بينما يقدم عمل الدافع والـذكاء المفتـاح للنشـاط العقلي الفـردي. ولكنهما ثانويان بالنسـبة للعادة، حتـى يفهم العقل عملياً على انـه نظـام للمعتقـدات والرغبـات والأهـداف التي تتشـكل بتفاعل الاسـتعدادات البيولوجيـة مع البيئة الاجتماعية»(جـون ديوي، الطبيعة البشـرية، ص ٢٥).

(٤٥) دولوز، التجريبية والذاتية، ص ٧- ٨.

(٤٦) جون ديوي، الطبيعة البشرية، ص ٣٢٩.

(٤٧) كوبلستون، تاريخ الفلسفة، ج ٥، ص ٤٠٥.

(48) Hume، David، Principles of morals، p 48.

(٤٩) المومنـي، فاطمـة، العقد الاجتماعي ومسـألة الوعد عند دافيد هيوم، مجلـة العلوم الاجتماعية، المانيا – برلين، العدد ٦ سنة ٢٠١٨، ص ١٦٥-١٦٦.

(٥٠) أحمـد، محمود سـيد، الأخلاق عنـد هيوم، ص ٣٩-٤٠.

(٥١) جون ديوي، الطبيعة البشرية، ص ٢٢-٢٣.

(٥٢) هيوم، الرسالة، ص ٢٨٥.

(53) Hume، David، Principles of morals، p 10.

(٥٤) ديوي، المصدر السابق، ص ٢٢.

(٥٥) هيوم، الرسالة، ص ٤١٥.

(٥٦) محمد تقي جعفري، تحليل نقدي لنظريات ديفيد هيوم على ضوء أربعة مسائل فلسفية، ترجمة: أسعد مندي الكعبي،المركز الاسلامي للدراسات الاستراتيجية – العتبة العباسية المقدسة، ط ١، ٢٠١٨، ص ٧٣.

(57) Hume، David، An Enquiry Concerning The Principles of morals، p 181.

(٥٨) لقد ظهرت تأويلات محدثة عن فلسـفة هيوم باعتباره يقـف بين»العقلانيـة والتجريبية"، فـي حين دأبت الدراسـات التـي تقف عنـد ظاهر النـص الهيومي إلـى اعتبار هيـوم تجريبي صارم، فـي حين عزى آخـرون مذهبه فـي صـورة توفيقية مغايرة أشـبه بنقدية كانـط، بدليل ظهور اصطـلاح الهيومكنطية عند مفسـري فلسـفة ديفيد هيوم(ينظر: عبيد، سعيد علـي، بحـث: منهجية الخشـت التأويلية فـي الدين والميتافيزيقا»هيوم انموذجاً"، مجلة هرمس، مركز جامعـة القاهرة للغـات والترجمة، المجلد السـادس العدد ٤، اكتوبر ٢٠١٧، ص ٢٢٣).

(٥٩) عبيد، سـعيد علي، منهجية الخشت التأويلية في الدين والميتافيزيقا»هيوم انموذجاً"، ص ١٩٦.

(٦٠) يشـير الخشـت إلى أن هذا المنهج هو الذي كشـف كانط النقاب عنه فيما بعد.

(٦١) الخشـت، محمد عثمان، العقل وما بعد الطبيعة تأويل جديد لفلسفتي هيوم وكانط، دار التنوير – مكتبة ابن سـينا للنشـر والتوزيع والتصدير، بـلا ط، ١٩٩٣، ص ص ١١، ٢٣٨.

(٦٢) دولوز، التجريبية والذاتية، ص ٧.

(٦٣) أنوار، حمادي، الدين والعقل في فلسـفة هيوم، مجلة تبايـن- المغـرب، العدد ٢٣ / ٦، شـتاء ٢٠١، ص ٤٠.

(٦٤) هيوم، الرسالة، ص ١٥.

(٦٥) المصدر نفسه، ص ٣٣٠.

(٦٦) المصدر نفسه، ص ٣٤١-٣٤٢.

(٦٧) أيوب أبـو دية، العلم والفلسـفة الأوربية الحديثة من كوبرنيق إلى هيوم، مراجعة، صفوان البخاري، دار الفارابي بيروت – لبنان، ط ١، ٢٠٠٩، ص ٢٣٠.

(٦٨) دولوز، التجريبية والذاتية، ص ٨٠.

(٦٩) يقـول دولـوز: « يعطي التداعي الـذات بنية ممكنة، لكن وحده الانفعال يعطيها كينونة، وجوداً. في علاقة التداعـي بالانفعال يجـد معنـاه، مصيره»(دولوز، التجريبية والذاتية، ص ١٩٥-١٩٦).

(٧٠) دولوز، التجريبية والذاتية، ص ٣٣.

(٧١) المصدر نفسه، ص ١٩٦.

(٧٢) المصدر نفسه، ص ٢١٥.

(٧٣) هيوم، الرسالة، ص ٤٢٠.

(٧٤) أحمد، محمود سيد، الأخلاق عند هيوم، ص ص ٥٣، ٧٨.

(٧٥) هيوم، المصدر السابق، ص ٤٣٤.

(٧٦) المصدر نفسه، ص ٥٧٥.

(٧٧) دولوز، التجريبية والذاتية، ص ٩٣.

(٧٨) القويري، سميرة سالم، الدليل الاستقرائي بين ديفيد هيوم وبرتراند رسل، مجلة كلية الآداب – جامعة مصراتة، العدد ٢ سنة ٢٠١٧، ص ٢٨٨.

(٧٩) دولوز، المصدر السابق، ص ١٧٥.

(٨٠) الشنيطي، محمد فتحي، المعرفة، دار الثقافة للطباعة والنشر – القاهرة، ط ٥، ١٩٨١، ص ١٢٣.

(٨١) هيوم، الرسالة، ص ٣٠٦.

(٨٢) كوبلستون، تاريخ الفلسفة، ج ٥، ص ٣٣٦.

(٨٣) هيوم، المصدر السابق، ص ١١.

(٨٤) هيوم، محاورات في الدين الطبيعي، ترجمة. محمد فتحي الشنيطي، تصدير د.عثمان أمين، مكتبة القاهرة الحديثة، ط ١، ١٩٥٦، ص ٢٦.

(٨٥) كوبلستون، المصدر السابق، ج ٥، ص ٤٠٩.

(٨٦) هيوم، الرسالة، ص ٦١٦.

(٨٧) زكي نجيب محمود، رسالة في الطبيعة البشرية لهيوم، ص ١١٢.

(٨٨) أحمد، محمود سيد، الأخلاق عند هيوم، ص ٥٤.

(٨٩) هيوم، الرسالة، ص ٤٤٩-٤٥٠.

(٩٠) يستخدم هيوم كلمة»عاطفة" لتعني ببساطة اندلاعاً لانفعال غير منظم، مثلما نتحدث عن شخص يحتدم غيظاً. لأنه يعبر بكلمة Passion أي عاطفة، كما عبر بها فلاسفة آخرون في عصره لتشمل الانفعالات، والوجدانات بوجه عام(Hume، David،Principles of morals، p ١٥٨.).

(٩١) هيوم، المصدر السابق، ص ٤٣٠.

(٩٢) عبد المعطي، فاروق، ديفيد هيوم الفيلسوف الأديب، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان، ط ١، ١٩٩٣، ص ص ١٧٥، ١٧٧.

(٩٣) هيوم، المصدر السابق، ص ٤٣٣.

(94)Hume، Principles of morals، p 158.

(٩٥) هيوم، المصدر السابق، ص ٤٢٤-٤٢٥.

(٩٦) أحمد، محمود سيد، الأخلاق عند هيوم، ص ٣١.

(97)Hume، Principles of morals، p 136.

(٩٨) مدين، محمد، فلسفة هيوم الأخلاقية، ص ١٤٥.

(٩٩) في هذه الفكرة يلزم هيوم نفسه بنظرية الحاسة الخُلقية المؤسسة بالأصل على دور العواطف والانفعالات في الأخلاق، وسنرى في الموضوع اللاحق كيف أن تظافر العقل(الخيال) مع العواطف يلعبان الدور الرئيس في التأسيس لهذه المشاركة الوجدانية في عملية مركبة عنوانها التعاطف.

(100)Hume، Principles of morals، p 209-210.

(١٠١) ينظر في ذلك: عنوان العدد الخاص(١٨) لمجلة الاستغراب، المركز الاسلامي للدراسات الاستراتيجية – بيروت، السنة الرابعة، شتاء ٢٠٢٠).

(١٠٢) هيوم، الرسالة، ص ٤٢٦.

(١٠٣) خاني، محمد فتح علي، فلسفة الدين عند ديفيد هيوم، ترجمة. حيدر نجف، المركز الاسلامي للدراسات الاستراتيجية – العتبة العباسية المقدسة، ط ١، ٢٠١٦، ص ١٩٢.

(104)Hume،Principles of morals،p 3.

(١٠٥) هيوم، الرسالة، ص ٤٤٨-٤٤٩.

(١٠٦) دولوز، التجريبية والذاتية، ص ٢٤-٢٥.

(١٠٧) أحمد، محمود سيد، الأخلاق عند هيوم، ص ٨٦.

(١٠٨) يشـير دولوز إلـى أن الفكر ليس عقـلاً عند هيوم، بـل العقل هو تأثر للفكر. وبهذا المعنى سـوف يقال عنه غريزة، عادة، طبيعة. إذ ليس العقل غير تحديد عـام وهـادئ للانفعـالات Emotions وللعواطف Passions، يقـوم علـى رؤيـة مـن بعيـد أو على الانعكاس(دولوز، التجريبية والذاتية، ص ٢٤).

(١٠٩) هيوم، الرسالة، ص ٣٠٨.

(110) Hume، Principles of morals، p 144.

(١١٢) هيوم، ديفيد، التاريخ الطبيعي للدين، ترجمة، حسام الدين خضور، دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق – سورية، ط ١، ٢٠١٤، ص ١١٩-١٢٠.

(١١٣) شـيدان، حسين علي، بحث(الوصل المضطرب بين العقـل والأخلاق مقاربـة نقدية لرؤيـة ديفيد هيوم، مجلـة الاسـتغراب، المركز الاسـلامي للدراسـات الاسـتراتيجية – بيـروت، عدد خاص ١٨، السـنة الرابعة، شتاء ٢٠٢٠، ص ١٥٧).

(١١٤) هيوم، الرسالة، ص ٤٨٥.

(١١٥) المصدر نفسه، ص ٤٧٣.

(١١٥) هيوم، أبحاث، ص ٢٧٩.

(116) Hume، Principles of morals، p 82.

(117) Ibid، p 8.

(١١٨) هيوم، الرسالة، ص ٥٩٠.

(119) Hume، Principles of morals، p 1.

(١٢٠) هيوم، محاورات في الدين، ص ١٥٢-١٥٣.

(١٢١) أحمد، محمود سـيد، الأخلاق عنـد هيوم، ص ٨٤-٨٥.

(١٢٢) حسين علي شيدان، الوصل المضطرب، ص ١٤٨.

(١٢٣) عبد المعطي، فاروق، ديفيد هيوم، ص ٤٢.

(١٢٤) هيوم، الرسالة، ص ٤٦٩.

(١٢٥) المصدر نفسه، ص ٤٢٨.

(126) Hume، Principles of morals، p 17.

(١٢٧) أحمـد، محمود سـيد، الأخلاق عنـد هيوم، ص ص ١٠٥، ١٠٧.

(١٢٨) هيوم، الرسالة، ص ٤٨٠.

(١٢٩) المصدر نفسه، ص ٤٨١.

(١٣٠) درويش، بهـاء، هيوم كمثال لمعضلة التنوير، ص، ٢١٦.

(١٣١) يقول ديوي: « الأخلاق التي تغفل صراحة الطبيعة الانسـانية تنتهي بتأكيد تلك الصفات العادية للطبيعة الانسانية، وتبالغ في تأكيد غريزة القطيع حتى تصل إلى المطابقة بين الجميع»(ديوي، الطبيعة البشرية، ص ٢٩).

(١٣٢) هيوم، الرسالة، ص ٤١٦.

(١٣٣) فـي معنى هذا التقابل يشـير هيوم إلـى أننا» عندما ننظر كيف تتماسـك الأدلة الأخلاقية والطبيعية معاً وتشكل سلسـلة من الحجج تربط بينها، لا نتردد في أن نقبل أنها من الطبيعة ذاتها ومسـتمدة من المبادئ ذاتها»(هيوم، الرسالة، ص ٤١٨).

(١٣٤) هيـوم، تحقيـق فـي الذهـن، متن المؤلـف وهامش المترجم ص ٢٥.

(١٣٥) دولوز، التجريبية والذاتية، ص ٤٤.

(١٣٦) ديوي، الطبيعة البشرية، ص ٢٦.

(137) Hume، Principles of morals، p 12.

(١٣٨) هيوم، أبحاث، ص ١٦٦.

(139) Hume، Principles of morals، p 102.

(١٤٠) يقـول هيوم: « ان تعاطفنا ولطفنا هما اللذان يكبحان ارادتنـا الخارجـة عـن القانـون، وبما انـه لا ينتج عنهمـا أي ظلم، فقد تم ترسـيخهما بقوة في الطبيعة البشرية»(Hume، Principles of morals، p ٤٥).

(141) Ibid، p 88.

(١٤٢) الحقد برأي هيوم لا يضع مجالاً للتعاطف، لأن الحقد يحاكـي آثار الكره، ويعطينا فرحة وبهجة في معاناة الآخريـن وشـقائهم، دون أية اسـاءة أو أذى أصابنا منهم(هيوم، الرسالة، ص ٣٨٣).

(١٤٣) بينما الشعور بالحقد يحاكي آثار الكره، تحاكي الشفقة آثار الحب، فالشفقة هي الاهتمام بشقاء الآخرين والحقد هو الفرح بذلك الشقاء، لذا كان من السهل شرح الشعور بالشفقة انطلاقاً من عملية التفكير المتعلقة بالتعاطف(هيوم، الرسالة، ص ص ٣٨٠، ٣٨٣).

(١٤٤) عبد المعطي، فاروق، ديفيد هيوم، ص ١٢٩.

(١٤٥) هيوم، الرسالة، ص ٣٢٩.

(١٤٦) دولوز، التجريبية والذاتية، ص ١٨٠.

(١٤٧) يشير هيوم إلى أنه بصورة عامة يمكننا أن نلاحظ أن من المستحيل أن نفعل الخير للآخرين، مهما يكن الدافع، دون أن نشعر بلمسة ما من اللطف والنية الحسنة تجاههم، فيما الأذى الذي نقوم به لا يسبب الكره لدى الشخص الذي يقع عليه وحسب، بل حتى لدينا نحن أنفسنا(هيوم، الرسالة، ص ٣٩٥).

(١٤٨) هيوم، الرسالة، ص ٣٩٦.

(١٤٩) مدين، محمد، فلسفة هيوم الأخلاقية، ص ٣٥.

(١٥٠) هيوم، المصدر السابق، ص ٣٠٦-٣٠٧.

(١٥١) المصدر نفسه، ص ٣٠٥.

(١٥٢) هيوم، أبحاث، ص ١٦٨.

(١٥٣) ايجلتون، تيري، مشكلات مع الغرباء – دراسة في فلسفة الأخلاق، ترجمة: عبد الرحمن مجدي ومصطفى محمد فؤاد، مراجعة. مصطفى محمد فؤاد، مؤسسة هنداوي سي آي سي – المملكة المتحدة، ٢٠١٧، ص ٦٣.

(154) Hume، Principles of morals، p 199.

(١٥٥) عبد المعطي، فاروق، ديفيد هيوم، ص ٤٢-٤٣.

(١٥٦) هيوم، أبحاث، ص ٦١٧.

(157) Hume، Principles of morals، p 99.

(١٥٨) هيوم، الرسالة، ص ٤٣٨.

(١٥٩) أي العلية والتشابه والتجاور.

(١٦٠) درويش، بهاء، هيوم كمثال لمعضلة التنوير،ص٢١٦.

(١٦١) هيوم، المصدر السابق، ص ٤٠٠.

(162) Hume، Principles of morals، p 42.

(١٦٣) أحمد، محمود سيد، الأخلاق عند هيوم، ص ٦٧.

(١٦٤) يشير هيوم إلى أن» لرهافة الذوق نفس تأثير رهافة العاطفة، انها توسع نطاق كل من السعادة والشقاء على حد سواء وتجعلنا حساسين تجاه الآلام كما تجاه المسرات التي لا يعرفها بقية البشر... ان المسرات الكبيرة أقل بكثير من الالام الكبيرة، بحيث انه يتعين على الطبع الحساس أن يمر بتجارب أقل في المجال الأول مقارنة بالأخير»(هيوم، أبحاث، ص ١٠٧ - ١٠٨).

(١٦٥) هيوم، الرسالة، ص ٣٨٠.

(166) Hume، Principles of morals، p 101-102.

(١٦٧) ينظر: هيوم، ديفيد، رسالة في الطبيعة البشرية، الجزء الثاني في الأهواء، ترجمة. وائل علي سعيد، ضمن التقديم، ص ٣٧.

(١٦٨) هيوم، أبحاث، ص ٢٩٤.

(١٦٩) عبد المعطي، فاروق، ديفيد هيوم، ص ١٧٢-١٧٣.

(١٧٠) هيوم، المصدر السابق، ص ٦١٦.

(171) Hume، Principles of morals، p 103.

(172) Ibid، p 84.

(١٧٣) ايجلتون، تيري، مشكلات مع الغرباء، ص ٦٩-٧٠.

(١٧٤) هيوم، الرسالة، ص ٣٣٢.

(١٧٥) يفسر ذلك هيوم مفترضاً انني لو رأيت شخصاً ما لا أعرفه البتة، لكن لكونه نائماً في الحقول، عرضة لأن تطأه حوافر الخيول، فانني سأسرع في الحال الى مساعدته، ويكون دافعي لهذا العمل هو مبدأ التعاطف ذاته الذي يجعلني مهتماً بالأحزان الماثلة للغريب(هيوم، الرسالة، ص ٣٩٦)..

(١٧٦) هيوم، المصدر السابق، ص ٣٩٦.

(١٧٧) محمود سيد أحمد، الأخلاق عند هيوم، ص ٦٧.

(١٧٨) كوبلستون، تاريخ الفلسفة، ج ٥، ص ٤٠٨.

(١٧٩) في التعاطف الهيومي ثمة انقلاب واضح للفكرة إلى انطباع. هذا الانقلاب ينشأ من علاقة الأشياء بذاتها. وذاتنا هي دائماً ماثلة لنا مثولاً حميماً، فالتعاطف يصاحب بالضبط عمليات فهمنا بل يتضمن شيئاً ما مدهشاً وخارقاً للعادة أكثر(هيوم، الرسالة،٣٣٢).

(١٨٠) هيوم، الرسالة، ص ٣٢٩.

(181) Hume، Principles of morals، p 78.

المصادر والمراجع والبحوث:

أولاً – المصادر

- هيوم، دافيد / تحقيق في الذهن البشري، ترجمة: محمد محجوب، المنظمة العربية للترجمة، بيروت- لبنان، ط ١، ٢٠٠٨.

– هيوم، ديفيد / أبحاث أخلاقية سياسية وأدبية، ترجمة: عبد الكريم ناصيف، دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق – سورية، ط ١، ٢٠١٦.

=، = / رسالة في الطبيعة البشرية، ترجمة: عبد الكريم ناصيف، دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق – سورية، ط ١، ٢٠١٦.

=، = / رسالة في الطبيعة الانسانية(الجزء الثاني في الأهواء)، ترجمة وتقديم: وائل علي سعيد، الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة – دمشق، بلا ط، ٢٠٠٨.

=، = / التاريخ الطبيعي للدين، ترجمة. حسام الدين خضور، دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق – سورية، ط ١، ٢٠١٤.

=، = / مبحث في الفاهمة البشرية، ترجمة: موسى وهبة، دار الفارابي بيروت – لبنان، ط ١، ٢٠٠٨.

– هيوم / محاورات في الدين الطبيعي، ترجمة: محمد فتحي الشنيطي، تصدير د.عثمان أمين، مكتبة القاهرة الحديثة، ط ١، ١٩٥٦.

Hume، David: An Enquiry Concerning The Principles of morals، London: Printed for A. Millar، over-against .Catherine-street in the Strand ١٧٥١.

ثانياً - المراجع

- أبو دية، أيوب / العلم والفلسفة الأوربية الحديثة من كوبرنيق إلى هيوم، مراجعة: صفوان البخاري، دار الفارابي بيروت – لبنان، ط ١، ٢٠٠٩.

- أحمد، محمود سيد / الأخلاق عند هيوم، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، بلا ط، ١٩٩٢.

- ايجلتون، تيري / مشكلات مع الغرباء – دراسة في فلسفة الأخلاق، ترجمة: عبد الرحمن مجدي ومصطفى محمد فؤاد، مراجعة. مصطفى محمد فؤاد، مؤسسة هنداوي سي آي سي – المملكة المتحدة، ٢٠١٧.

- جعفري، محمد تقي / تحليل نقدي لنظريات ديفيد هيوم على ضوء أربعة مسائل فلسفية، ترجمة: أسعد مندي الكعبي،المركز الاسلامي للدراسات الاستراتيجية – العتبة العباسية المقدسة، ط ١، ٢٠١٨.

- خاني، محمد فتح علي / فلسفة الدين عند ديفيد هيوم، ترجمة: حيدر نجف، المركز الاسلامي للدراسات الاستراتيجية – العتبة العباسية المقدسة، ط ١، ٢٠١٦.

- الخشت، محمد عثمان / العقل وما بعد الطبيعة تأويل جديد لفلسفتي هيوم وكانط، دار التنوير – مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع والتصدير، بلا ط، ١٩٩٣.

- دولوز، جيل، التجريبية والذاتية» بحث في الطبيعة البشرية وفقاً لهيوم»، ترجمة: أسامة الحاج، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، ط ١، ١٩٩٩.

- ديوي، جون، الطبيعة البشرية والسلوك الانساني، ترجمة وتقديم: محمد لبيب النجيحي، تصدير. محمد

مديـن، المركز القومي للترجمـة – القاهرة، بلا ط، ٢٠١٥.

- الشـنيطي، محمد فتحي، المعرفة، دار الثقافة للطباعة والنشر – القاهرة، ط ٥، ١٩٨١.

- عبـد المعطي، فاروق، ديفيد هيوم الفيلسـوف الأديب، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان، ط ١، ١٩٩٣.

– كوبلسـتون، فردريك، تاريخ الفلسفة، المجلد الخامس، ترجمة: محمود سـيد أحمد، مراجعـة وتقديم. امام عبد الفتاح امام، المجلس الأعلى للثقافة، المشـروع القومي للترجمة – القاهرة، ط ١، ٢٠٠٣.

– مدين، محمد محمد، فلسـفة هيوم الأخلاقية، اشراف: أحمـد عبد الحليـم عطيـة، دار التنوير بيروت – لبنان، بلا ط، ٢٠٠٨.

Smith، Norman kemp: The Pilosophy of David Hume A Critical Study of its origins and central doctrine، introduction by. Don Garrett London: Macmtlla، ١٩٤١.

ثالثاً – المجلات والدوريات

أنوار، حمادي، الدين والعقل في فلسفة هيوم، مجلة تباين – المغرب، العدد ٢٣/ ٦، شتاء ٢٠١٨.

- درويـش، بهاء، ديفيـد هيوم كمثال لمعضلـة التنوير، مجلـة الاسـتغراب، المركز الاسـلامي للدراسـات الاسـتراتيجية، بيـروت، عـدد خاص ١٨، السـنة الرابعة، شتاء ٢٠٢٠.

- الشيخ، محمد، في فلسفة الاعتقاد، مجلة التفاهم، سلطنة عُمان، العدد ٥٨/٥٧، سنة ٢٠١٧.

- شـيدان، حسـين علـي، الوصـل المضطـرب بيـن العقـل والأخلاق مقاربـة نقدية لرؤيـة ديفيد هيوم، مجلـة الاسـتغراب، المركز الاسـلامي للدراسـات الاسـتراتيجية – بيـروت، عدد خاص ١٨، السـنة الرابعة، شتاء ٢٠٢٠.

-عبيد، سـعيد علـي، منهجية الخشـت التأويلية في الدين والميتافيزيقا»هيوم انموذجاً»، مجلة هرمس، مركز جامعـة القاهرة للغـات والترجمة، المجلد السـادس العدد ٤، اكتوبر ٢٠١٧.

- القويري، سـميرة سـالم، الدليل الاسـتقرائي بين ديفيد هيوم وبرتراند رسـل، مجلة كليـة الآداب – جامعة مصراتة، العدد ٢ سنة ٢٠١٧.

- محمـود، زكـي نجيب، رسـالة فـي الطبيعة البشـرية لهيوم، مجلة تراث الانسانية – مصر، العدد ١، سنة ١٩٦٣.

- المومنـي، فاطمـة، العقـد الاجتماعي ومسـألة الوعد عند دافيد هيوم، مجلـة العلوم الاجتماعية، المانيا – برلين، العدد ٦ سنة ٢٠١٨.

Moral Sentimentalism Theory in Hume›s "A Treatise of Human Nature»

Asst. Prof. Zyaad Kamal Mustifa (PhD.)

Al-Mosul University/ College of Arts/Dept. of Philosophy

Abstract

Being affected by verbal discrimination more than by real underlying differences, we are not trained to deal with the nature of human emotions. This is the way Hume starts analyzing human nature. For him, it is not related to a logical or mathematical conclusion of the emotions involved, rather, it is an attempt to physically deconstruct the emotions or «emotional movement». This is Hume›s endeavor to lay down the foundations for an experimental science of human nature, which is meant to confirm the significance of creating a space for harmony among what are there at the core of human subjective emotions. This goes in line with the idea that moral behavior is seen as being built on a humanitarian and social principle which is based the collective principle underlying the empathy process as a whole. Hence, the theory of «sentiments» in Hume›s philosophy could account for the psychological, social, and critical aspects of human nature on solid grounds of skepticism. Yet, this theory persistently attempts to reconstruct its premises on conciliatory foundations for experimental anthropological communication as potentially indicated in his book "A Treatise of Human Nature» where his treatises strongly highlight virtue and love, and reject evil and hate. Hume's philosophy is a philosophy of altruism or empathy that sets the stage for a sequel entitled «The Bonds of Moral Sense.»

Keywords: experiment, sentiment, human nature, morals, empathy